# أندريان جاك فولي

# كنتُ عبدا في المغرب

## (1783 - 1784)

ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري



أندريان جاك فولي

# كُنتُ عبداً في المغرب

## 1783م - 1784م

ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري

الكتاب : **كنت عبدا في المغرب** ( 1783 – 1784 : رحلة )

المؤلف : **أندريان جاك فولي**

ترجمة : **بوشعيب الساوري**

الناشر : القلم المغرب

التصميم والأنفوغرافيا : محمد لعروصي

الطبعة الأولى :2017

المطبعة : دار القرويين– الدار البيضاء

لوحة الغلاف :

رقم الإيداع : 2017MO0283

ردمك : 978-9954-9607-9-0

# مقدمة الـمترجم

إلى جانب محكي الهولندية **ماريا ميتلن** (1731-1743 م) والسويدي ماركوس بيرغ (1757م) والفرنسي بريسون (1784م)، التي صارت عبارة عن مدونة يستحق أن يتوقف عندها الدارسون نظرا لما تقدم لنا من صور لا ننتبه إليها، تنضافُ إليها يوميات الفرنسي **أندريان جاك فولي** (1783م-1784م)[1] فهي تُعدّ بحق من أبرز محكيات الأسْر والاستعباد في المغرب التي دوّنها الأوربيون خلال القرن الثامن عشر، لما تشملُه من مشاهد وأحداث مثيرة تواطأت فيها الطبيعة والإنسان، رُويت بأسلوب مشوّق، عن ثمانية أشهر من الاستعباد جنوب المغرب، لا تخلو من مبالغة وانفعالات ذاتية، موجّهة بالمركزية الأوربية التي كانت ترى في غيرها من الشعوب "متوحشة" وهو ما نلمسه في حديث جاك فولي عن المغاربة الذين استعبدوه، هو ورفاقه، فيما صدر عنه من عُنف لغوي فجّر فيه انتقامه منهم وصل حدّ نعتهم بالمتوحشين.

وتكمُن أهمية هذه اليوميات في كونها تكشِف كيف تفاعل الكاتب مع مِحنَتِه

---

[1] - ***Adrien-Jacques Follie***, ***Mémoire*** **d'un François qui sort de l'esclavage**, Ed. La porte, Paris, 1792.

وردود فعله تُجاه ما عاش، وما تعرّض له من تعذيب واستعباد. لذلك جمَع جاك فولي في محكيه بين الحديث عن محِنه وما تعرّض له من تعذيب وتنكيل من قِبَل مالكيه الذين كان ينعتهم بالمتوحشين، وقد أخذ هذا الجانب حيزاً كبيراً من محكيه، وقد أكّد أنّه مؤسّس على الصدق يقول: "أما أنا فقد رويتُ، بصدق وببساطة، ما تكبّدْتُه من محِن أثناء استعبادي." لم يخل محكيه من تقديم تقارير، ولو جاءت مُختصرة، عن ثقافة السكان الذين كان بينهم في منطقة واد نون. كما يُسلّط الضوء على تجارة الأسرى وكيف أصبحت تجارة قائمة الذات يتداخل فيها عدّة فاعلين؛ الحكام والقناصل والتجار الأوربيين وكذا علاقتها بالسلطان والتلاعبات التي كانت تشهدُها، وكيف كان بعض المغاربة يستغلون شراء الأسرى. كما يقدّم، ولو بشكل مختصر، صورة عن حياة تلك القبائل المغربية ونشاطها التجاري. ولم يخل محكيُه من الحديث عن قُطاع الطرق. كلّ هذه الأمور التي أوردَها جاءتْ لصيقَةً بتجربته في الأسْر والاستعباد.

كل هذه الأسباب تجعلني كلي سعادة في تقديم هذا الكتيب في حلة عربية.

**بوشعيب الساوري**

الدار البيضاء نونبر 2016

# تنبيه للقارئ

لمْ أحرِّر هذَا الكُتيّب، في بداية الأمر، سوى تلبية لرغبة بعض أصدقائي: إنّه كان موجَّها لأُولئك وحْدهم. كنْتُ أظنّ أن مصائب شخص عادي لا يُمكنها أن تُحدِث تأثيراً إلا فِيمن يُكنّون له محبّة حميمة كانت تهمُّ أمره؛ لكن تمّ إقْناعي أنّ ما كُنتُ ضحية له من محِن هي ذات طبيعة غريبة جداً تجعلُها قادرة على شدِّ وإثارة انتباه أشْخاص لا أعرفُهم ولا يمتّون لي بأيّ صلة، فقط يكفي أن يكونوا متمتّعين بالروح الإنسانية ومُرهَفي الحِسّ لكي يقرؤوا هذا المحكي ببالغ الاهتمام.[2]

لا تتوقّعوا، [أعزّائي القراء]، أن تجِدوا جماليات الخطابة في هذه السطور، فتِلك الزخارف المتأنّقة وتلك اللوحات المتنوعة تهدفُ إضفاء طابع جمالي على روايات من إبداع خيال كاتب بارع. أمّا أنا فقدْ روَيْتُ، بصدق وبأسلوب بسيط،

---

[2]- وقريب من هذا المعنى التشويقي، الذي يهدف، بالدرجة الأولى، إغراء القارئ بمتابعة المحكي، ما يؤكده الأسير مويط في مقدمة رحلته: "ولما كان ذكر النكبات لا يمنح السرور فقط لمن نجا منها، وإنما يعجب سردُها حتى الذين يقرؤونها." **رحلة الأسير مويط**، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر، منشورات مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، دار المناهل للطباعة، وزارة الثقافة، 1990، ص.11. [المترجم]..

ما تكبّدْتُه من مِحِن أثناء اسْتِعبادي[3]: فإذا ما استطاعتْ هذه السطور أن تُحدث تأثيراً في بعض من قُرّائي، فلنْ ألوم نفْسي على التهوّر في التجرّؤ على نشْرها.

[3]- يلاحظ القارئ فعْلا أن جاك فولي نهج أسلوباً تقريرياً تتبّع فيه مسار رحلته ابتداء من الغرق وما لاقاه خلالها من محن أثناء الاستعباد، وكيف تمّ افتداؤه بصعوبة وكذا مسار عودته إلى وطنه، وأهمّ محطاتها. لكن الذي يجعل محكيه مثيراً ولافتاً للقارئ هو ما قاساه الكاتب في مرحلة الغرق ومرحلة الاستعباد، وقُبيل عودته أثناء الحجر الصحي.[المترجم].

# الانطلاق

قضيتُ اثنتا عشر سنة في دواليب الإدارة البحرية، كما سبَقَ لي أن شاركتُ في أربع حملات عسكرية في بلاد الهند الغربية[4] رُفقة السيدين دامبيير (Dampierre) ومانتيل (Monteil): إذ مكنني تفانيَّ في الاطّلاع بتلك المُهمّات التي أُوكلت إليّ من أن أحظى بتقدير رؤسائي في العمل. وحين قدمتُ بين يدي الملك[5] حصيلة إيجابية عن أعمالي، أراد أن يكرّمني بشهادة ضابط في إدارة المُستعمرات، فوجَّهني لمباشرة مهامّي بالسنغال.

تلقّيتُ الأوامر وانطلقْتُ من باريس يوم 26 أكتوبر 1783م، حاملاً معي حسرات أسرتي، وتاركاً لها حسراتي. وفي يوم 19 دُجنبر انطلقْنا من بوردو: أبحرتُ على متْن سفينة الصديقين (Les deux amis)، التي كان يقودها القبطان كارسان (Carsin).

---

[4]- استعمل هذا الاسم ((*West Indies* /Indes occidentales) من قبل الأوربيين في فترة الاكتشافات الكبرى التي أقدم عليها الأوربيون بمختلف أنحاء المعمور، ويطلق على أمريكا.[المترجم].

[5] – يقصد الملك **لويس السادس عشر، حكم من** 1774 إلى 1792 م آخر ملوك فرنسا قبْل الثورة الفرنسية، في عهده قامت الثورة الفرنسية وأدت إلى إطاحة بالحكم المطلق. [المترجم]..

صارت الرياح ملائمة وأنبأتْنا بإبحار ميمون، فنزلْنا النّهر[6] في أمْن تام. وفي يوم 21 [دجنبر] منَعَنَا مظهر جوّ سيّء من الانطلاق، فظلَلْنا مواجهين لرويان (Royan)[7] إلى غاية يوم 30 [دجنبر].

حتّمتْ رؤية مركب شحْن الملك، المُسمّى البايونيز، كانَ قدْ خرَج من النهر، على قُبطاننا الإبحار. وفي مُنتصف النهار انسحب المرشد الساحلي، وانطلقْنا نحْو وِجهتِنا.

في ليلة فاتح يناير وثاني يناير [1784م]، صار الجوّ عاصفاً، وانقلبت الرياح إلى الجهة الجنوبية، وأجبرتْنا على ترْك طريقنا. وخلال أربعة أيام تضخّم البحر كثيراً؛ وتمّ اقتياد السفينة في اضطراب، خاف البحارة في ذلك الحين على حيواتهم، وكان القلق بادياً على جبين القبطان وكان متجلياً في كل خطاباته: إذْ أن القليل من الثقة الذي كان له في ضُبّاطه الذين لم يسبق لهم أن أبحروا في سُفن

---

[6]- **الجارون** (la Garonne) نهر يقع جله في جنوب غرب فرنسا. ينبع النهر من الجانب الإسباني لجبال البرانس، على ارتفاع 3404 م في ما يعرف بقمة أَنِتو منطقة أرجوان. يجري الجارون في اتجاه عام شمالي غربي حتى مصبه في المحيط الأطلسي، حيث يلتقي مع نهر الدوردون في مصب الجيروند. يبلغ نهر الجارون 647 كم طولاً. يمر نهر الجارون بمدينتي تولوز وبوردو الواقعة بالقرب من مصبه، حيث كان يشكل في الماضي محوراً رئيسياً للنقل في المنطقة. يرتبط الجارون بالبحر المتوسط بواسطة قناة ميدي قناة الجنوب. [المترجم].

[7]- مدينة تقع جنوب غرب فرنسا على الساحل الأطلسي. [المترجم]..

ذات صُنع هولندي، وانعدام تجربة الطاقم الذي لم يسبق لِنصفه أبداً أن رأى البحر، كل ذلك جعله يخشى وقُوع حادث يؤسف له. كنّا نبتَعِد، شيئاً فشيئاً، عن وِجهتنا. وكنّا نعتقِد في ذلك الحين أنّنا قريبون من أويسان (Ouessant)[8]، حينما هدأت الرياح ليلة 5 و6 يناير [1784م] وانتقلت نحو الجهة الشّمالية. استغلّها القُبطان وأشار إلى طاقمه كي ينشروا كلّ الأشرعة فتبدّدت خطورة الطريق.

كنّا ممتلئين بالفكرة السارة الُمتمثلة في تمكّننا من تجنّب غرق مُحتمل، فخلدْنا إلى نوم هادئ، لم نتذوقْه منذ أربعة أيام. كان الطقس مستقراً، لم يبْد أي خطر محتمل يهدّدنا، حتّى استيقظْنا فجأة مذعورين بسبب ارتجاج مُخيف للسفينة. اعتقدْنا جميعاً، بحّارة ورُكاباً، أنّنا هالكون لا محالة. كان المعبر يضرب ميمنةَ السفينة وميسرتها والحبالَ التي تشد الأعمدة، فخشينا على السارية الكبيرة؛ كما أن رباطة جأش القبطان وحفاظه على برودة دمه، أمام الخطر الحالي، والثقة البادية على مساعد القبطان، كل ذلك أنعش البحارة: لم يكن أي واحد منهم يخشى من تعريض حياته للخطر، قاموا بهِمّة ونشاط بالأعمال الأكثر خطورة، تلت هدوء الطاقم، بُعيْد ذلك، إنذارات بالخطر كانت قد أرْعبتْهم للتّو.

كان الملازم شاباً مفعماً بالزهو، وكان جديداً تماماً على الخدمة البحرية، فعرَّضنا لهذا الخطر. كان مختلف ضُبّاط السفينة يتناوبون على القيادة خلال الليل.

---

[8]– جماعة فرنسية معزولة تقع في منطقة بريطان بأقصى غرْب فرنسا على المحيط الأطلسي. [المترجم]..

وكان الشاب المتهور حينها يسهر على قيادة سفينتنا. وكان مزهواً بشغل منصب كان ينبغي أن يكون تحت حمايته، بدل أن يكون مزيّة له، أغلق عُلبة البوصلة، وكان يقود تحت ضوء القمر. وكانت الرياح الرّخية، التي كانت تهبّ لصالحنا، تدفع السفينة إلى الأمام.

لم يترُك القبطان أيّ وسيلة من الوسائل لإهانته [الشاب المتهور]؛ توبيخات وسُباب وتَهديدات. لقد أكّدت العديد من الأخطاء التي ارتكبها ذلك الشاب عدم أهليته. وهو ما جعله موضع احتقار في أعين كل البحارة. لدرجة أنه لم يكن أي واحد منهم لا يعتقد أنه أفضل منه تكويناً.

لكنّ القُبطان نفسَه، كان عديم الخبرة، شأنه شأن ملازمه. فقد قاده جهله المتجاوز للحدّ إلى أن حسِب الجبال العالية، التي تُرى من بعيد، هي شواطئ موكادور[9]، حيث لم تكن هُناك (جعلتنا نكباتُنا نعرف أنها كاب نون[10] الواقع على بُعد 60 فرسخاً من موكادور) وعِوض أن يتّجه إلى عرض البحر، ويتجنّب، بهذه الطريقة، غرقاً صار محتوماً تقريباً، عمل القبطان بوجهة نظر المساعد، ابن مُجهّز السفينة، والتي كانت تقضي بالتوجه نحو الساحل.

---

[9]– الاسم القديم لمدينة الصويرة. [المترجم].

[10]– يقع على السّاحل الأطلسي المغربي، بين طرفاية وسيدي إفني. كان صعْب الاجتياز بالنسبة للسّفن وسجل مجموعة من حوادث غرق السفن.[المترجم].

وأخيراً في 17 يناير 1784م، في الرابعة صباحاً (كان الملازم مكلّفاً في تلك اللحظة بقيادة السفينة،) وكان الطقس جيداً، والرياح مُساعدة، حين تركْنا الرياح خلْفنا على الساحل المنخفض بذلك المكان والمغطّى برمال خفيفة.

# الغرق

يا له من استيقاظ! يا إلهي! انفلقت السفينة قليلاً من جرّاء اصطدامها بالصخور. صراخ البحارة، والصخب المرعب للصخور التي تتكسر عليها الأمواج، وحبال السفينة المقطعة بفعل تأثير قوة الرياح، التي كانت تتضاعف شيئاً فشيئاً، تحطّمت الصواري والأشرعة حتى غابت داخل البحر، والأمواج التي كانت تغطي السفينة من جانب إلى جانب، والجهل بالمكان حيث كنّا، كل ذلك انْضاف إلى رُعب الليل، وجعل الموت وشيكاً ولا مفرّ منه. قفزْنا فوق سطح السفينة: وكان هناك من سيستحوذ على لوح خشبي أو على بئْر السّلم، لتمديد بقية من حياة كان الرعب قدْ أوشك على اختطافها منّا. اعترت البلبلة الجميع، القبطان والضباط والبحارة، ولم يكن هناك واحد قادراً على إعطاء الأوامر ولا واحداً لديه الاستعداد لتلقيها.

كان النهار قد شرع في البُزوغ، فلاَحَ لنا البر، أنعشتْ رؤيتُه آمالَنا. ذهبتْ خيفتُنا الأولى، عمِلْنا بهِمّة على تخليص سطح السفينة، رمينا الحبال والمرساة، بُعيد ذلك، بالبحر. لم تكن سفينتنا مائلة إلى أي جهة؛ وخوفاً من فقدان موقع جد ملائم قطعْنا السواري. كان الغضب والسعار مرسومين على وجه كل بحار.

وكانوا ينظرون بقُرف إلى المسبّب في غرقهم، وكانوا يريدون الانتقام منه، وفي تلك اللحظة الأولى من الغضب كانوا سيذبحون الملازم، إن لم يحتط في الاختباء.

مرّت حينها أربعُ ساعات، ولم يتمكّن أي واحد منّا، من إيجاد مخرج يمكّنه من الوصول إلى البر، كنّا نبعُد عن الشاطئ برُبع فرسخ، ولا واحد منا كان يظن أنه سيذهب إليه. قال القبطان متظاهراً بشجاعة كان يعدمُها، وبصوت عال، إن السفينة في وضعية جيدة وإنه بمُستطاعنا على مهَل إنقاذ حيواتنا وبضائعنا.

ولكي أُعطي أهمية لأدلّته، وزّعتُ المال على البحارة. فخفّ غضبهم؛ ثم وعَدُوني كلهم بأن لا يقْدِموا على فعل أي شيء دون أوامري. كنتُ أريدُ، إنْ أمكَن، إنقاذ الحمولة ومعها أمتعتي.

أثناء ذلك كلّف القبطانُ السيدَ **ديشان**، وهو طالب ضابط، كان سباحاً ماهراً، بالذهاب إلى البر. قبِل ذلك الشاب الشجاع الاقتراح، وطوّق جسمه بحبْل، ورمى بنفْسِه في البحر: رأيناه مرات عديدة يغيب عن أنظارنا، وأخيراً، بعْد أن صارع الأمواج مُدة طويلة، تمكّن من التخلّص من الحبل، الذي كان يشدّ ساقيْه، والذي يمكن أن يسبّب في موته، ووصل إلى البرّ مُدمى بسبب ما كان يغطّيه من جروح بفعْل سباحته بين الصخور، كان يوجد هناك برميل مرمي على الساحل آوى إليه للاحتماء من البرد القارس.

وبمُجرّد مرور رُبع ساعة على احتمائه بالبرميل، رأينا كلباً ضخماً كان يبدو أنه مندفع نحوه. جعلتْنا عيونُنا المضطربة بفعل الذّعر، نظنّ ذلك الكلب ببْراً؛ وجّهْنا دعواتنا إلى السماء من أجل أن يبتعِد عن رفيقنا السّيء الحظ.

وفجأة رأينا البَرّ حافلاً بجمع غفير من المتوحشين[11] السّمر. كانوا عُراة ممسكين السيوف بأيديهم، كانوا يُسارعون إلى الساحل ويُطلقون صيحات مفزعة. وعلى الرغم من كون السيد **ديشان** كان جدّ مُنهك بسبب ما بذله من جهود للهرب، رمى بنفسه مجدداً بالبحر عائداً إلى السفينة، فلاحقه المتوحشون سباحة حتى أمسكوه.

كنّا مشغولين بشيء واحد هو مُصاب هذا الشاب السّيء الحظ، رافعين أعيُننا نحو السماء، ومادّين أذرُعنا إلى أولئك المتوحشين، طالبين منهم العفو، لكنّهم كانوا غير مبالين بصراخنا، فتخاطفُوه فيما بينهم، وجرّدوه من قميصه وجرّوه، بلا شفقة، إلى أعْلى الهضبة. هُناك بدا لنا مدْفوناً في الرمل. بعْد ذلك أشعل المتوحشون ناراً كبيرة ورقصوا حول رفيقنا، مطلقين العديد من صيحات الفرح، وأوثقوه من رجليه ولحظة بعْد ذلك حُجِب عن أنظارنا.

---

[11]– يستعمل الكاتب تارة كلمة (Sauvages) وتارة (Barbares) لوصف المغاربة الذين وقع أسيرا لديهم، وهي صفة تعبّر عن رد فعل مقاوم من الكاتب تُجاه ما تعرض له من أسر ومحن وتعذيب واستعباد من قِبل المغاربة وهي صفة كانت تنسحب على المغاربة سكان بلاد البربر.[المترجم].

كم أُرْعِبْنا كثيراً أمام هذا المشهد! أكّد العديد منّا أنّهم رأوه قد أُعدم، وقال آخرون أنهم (المتوحشون) شووه. صرخات المتوحشين، رقصاتهم، والقليل من الاهتمام الذي أبدوه تُجاه سفينتنا، كلّ ذلك ساهم في استمرارنا نهباً لتلك الأفكار المُهلكة. أرْبك هذا الحادث السّيء اتّزاننا. وبما أنّنا كنّا غير متأكدين من اتخاذ أي قرار، ظللنا منهكين.

بينما كان الخطر يشتدّ، كانت السفينة تتكسّر شيئاً فشيئاً: وكانت الأمواج تحمل في كل لحظة بعض الحُطام الجديد إلى الشاطئ، وكان المتوحّشون يستولون عليه، ويلقونه على الفور في النار. على الرغم من خشية الموت الذي كان يبدو أنه بانتظارنا على الساحل، قام بعض البحارة بصناعة طوف نجاة؛ وكان واحد منهم سبّاحاً ماهراً، ارتمى به بُغية استمالة بعض من أولئك المتوحشين. لكنّهم أدركوا كل مخططاتنا، فلم يتقدّم منهم أي واحد.

بدا لنا الموت وشيكاً ومحتوماً، وضعْنا القارب على البَحر، بُغية أن ينقُلنا إلى البر، والأسلحة في أيدينا، وأن نبيع حيواتنا غالياً. وعلى الفور حملتْه موجة بعيداً عنا وقطّعت الحبال التي كانت تشدّه إلى السفينة، وبمُجرّد ما وصل إلى البر أُضرمتْ فيه النيران.

عِوض أن يثبّط هذا الحادث عزيمتَنا أنعشَها. تبقّى لنا أكبَر قارب نجاة كانت تحملُه السفينة، حمّلناه بالمؤونة والسلاح وبكل الأموال التي كانت موجودة

بالسفينة، ووضعتُ به كل حليّي وكل ما كنت أتوفر عليه من أشياء ثمينة. وفي حوالي ساعتين تمكّنا من وضْعه على البحر، لكن الأمواج كانت جدّ عنيفة، فأغرقتْه تماماً، ولم نقم سوى بمجهودات غير مجدية لإنقاذ ما وضعناه فيه من أشياء.

أخذ عددُ المتوحّشين يتزايد شيئاً فشيئاً، وكنّا محرومين من الإركاب، كان الليل يقترب من كل الجهات وكان مصير مريع يهدّدنا. أثار انتباهنا فجأة صانع البراميل بقوله: "أصدقائي، أنا سبّاح ماهر، سأذهب إلى البر، إذا كان المتوحشون قد افترسوا السيد **ديشان،** فإنهم يهيّئوننا لنَفْس المصير، وإذا ما تبيّن لي أنه ما يزال على قيْد الحياة سأشير لكم".

وبمُجرّد ما أنهى النطق بتلك الكلمات ارتمى بالبحر: بدا لنا، بُعيد ذلك، على الساحل. كان المتوحشون المنتبهين إلى كل تحركاتنا ينتظرونه هناك، التفّوا حوله وأطلقوا العديد من صيحات الفرح، وقادوه إلى نارهم. أوثقوه من رجليه ولم نره بعد ذلك.

ثبّط سوء نجاح إقدامه عزيمتَنا أجْمعين تماماً، ولا واحد كانت لديه الرغبة في العمل، انسحب البحارة إلى قُمراتهم، وكانوا لا يُبالون لأي أحد. لا شيء كان قادراً على التأثير فيهم لا تشجيعاتي ولا تشجيعات الرّكاب أيضاً ووعود مساعد

القبطان. قالوا: "ضياعُنا محتوم، أنحن في حاجة إلى الكثير من العمل من أجل المسارعة إلى الموت؟ لننتظره هنا، عزاؤنا، على الأقل هنا، في أننا لن نُذبَح."

أخذ الليل يدْلهم، نادى القبطان على الجميع إلى الجِسر، قدّم التماساً عاماً، واقترح علينا بعْد ذلك، لكي يُنهي عناءنا، أن نقوم بنَسْف السفينة؛ فانفجار البراميل الاثنتا عشر المحمّلة بالبارود التي كانت بمستودع البارود، ستنسِف سفينَتا في رمشة عين، كان البعض مع وجهة نظره، أما الباقون فكانوا غير متأكدين ولا يعرفون ماذا سيفعلون.

فقلتُ لهم: "أصدقائي، بما أن قُبطانكم جدّ متوحش، لأنه يدفعكم إلى الموت، ينبغي على الأقل أن أنبّهكم لتفتحوا أعينكم على فظاعة هذا المخطط: أتتصورون كم سيجعلكم تنفيذه مجرمين؟ حياتُكُم بِيَد خالقِها هو وحْدَه مالكُها، بإمكانه أن ينزعها، وبمستطاعه أن يُبقيها لكُم متى شاء، وهو قادر على أن يليّن قلوب هؤلاء المتوحشين. ماذا قلت؟ متوحشون. هم أقلّ وحشية ألف مرة من قُبطانكم. من قال له إنهم قتلوا رفيقيْكم؟ هو يعتقد ذلك، أنتم تخشونه، لكن هل خشيتُكُم كافية كي تُرخّص لكم الإقدام على الانتحار؟ أليس من المحتمل، عكس ذلك، أن هؤلاء السّكان تأثّروا، بشفقة، عند رؤية رفيقيْكم عاريين ومجمّدين بالبرد وجائعين ومُتعبَين؟ فاقتادوهما إلى بيوتهم ليقدّموا لهما الإسعافات الضرورية. أصدقائي سفينتنا في حالة جيدة؛ وهي ما تزال تقاوم وسط البحر،

لننتظر إلى يوم غد؛ لننتظر حتى يأتي إلينا أولئك السكان أنفسهم، لا تتسرّعوا، ولا تستعجلوا موتنا."

أيّد الركاب ومساعد القبطان خطابي، وكانوا مسلّحين بسكاكين، وكانوا يهدّدون بالذّبح بلا شفقة ولا رحمة، أول من سيتجرّأ على الاقتراب من الغرفة حيث كان يوجد البارود. رضخ كل الطاقم إلى وجهة نظري وإلى تهديدات الركاب.

وحْدهُ القبطان كان متجهِّم الوجه ومشغول البال، بالرغم من أنه كان يبدو قد أذعن لأدّلتي، فقد كان يتحين، مع ذلك، فُرصة لإنجاح مخطّطه المُهلك؛ تبصّرتُ إلى أن الحذر يقتضي ألا نتركُه وحيداً: كان كل يوم مصحوباً بواحد منّا ومحاطاً بالبحارة الذين كسبْناهم إلى صفّنا، فلم يكن يستطيع الإقدام على أية خطوة دون أن يكون تحت المراقبة.

انقسم المتوحشون، الذين أخذ عددُهم يزداد شيئاً فشيئاً، إلى جماعات، من مسافة إلى أخرى، وواصلوا إضرام النار على الساحل: فاللهب المدعوم بواسطة الحجر الذي أعلوه على شكل هرم، ورقصهم المتواصل، كل ذلك ساهم في جعْل ذلك الحفْل جدّ مثير للرعب في أنفسنا. رُعْب الليل الذي صار جدّ عاصف، والريح التي كانت تهبّ بقوة والبحر الذي كان يغطينا في كل لحظة، باختصار كانت كل العناصر مجتمعة تتنافس على هلاكنا.

كان البحارة كلهم تقريباً، المنهكين بالألم والجوع والتّعب، قد انسحبوا إلى قُمْراتِهم، تجنّباً لأي مفاجأة، وظلّ اثنان على جسر السفينة يتابعان خُطوات المتوحّشين، بينما ظلّ معنا اثنان آخران يعينانا في تشديد المراقبة على القبطان بغية إجهاض مخطّطاته المهلكة.

وأخيراً ذهب [القبطان] للنوم، واعتقدْنا أنّه سيستسلم له، إلاّ أنّه حين رآنا نبتعِد عنْه وضْع مُسدّسين في فمه محاولاً الانتحار. رأيتُه، فأسرعتُ نحْوه، أردْتُ إيقافه وكان حينَها قدْ انقلَبَ على سريره. فتمّ التعجيل بإنقاذه، واستأصل الجرّاح رصاصة كانت قدْ استقرّت في حنكه، أمسكناه، فانفلتَ من أيدينا، أمسكتُ بمُسدّسَيْه ورميتُهما بالبحر.

بسبَب خوفه من البقاء على قيْد الحياة، كان يبْحثُ عن السُّبل الأكثر استعْجالاً لإنهاء حياتِه، تآمرْنا على منْعِه، كنّا مَرْعُوبين بقراره؛ عمِلنا على تهدئة خيبة أملِه. كما أن ضُعف قِواه خفَّف من عُنْفِه. وفي الأخير تقبّل ما قدّمناه له من إسعافات.

خوْفاً من أن يُنسِب لنا المتوحّشون موتَه، كان العديدُ من أفْراد الطاقم يريدون إلقاءه في البحْر، بشدّ قطعة حجر إلى بطْنه. قلتُ لهُم: "أبنائي، لا ينبغي أن نختم حياتنا بجريمة، فالله أبقاه حياً من أجل معاقبته. فلم يخوّل لنا أن ننتزعها منه." كان لهذه الكلمات وقعٌ بالغٌ على قلْبِه. أخرج تنهيدة عميقة وطلب ورقة

وكتب عليها: "بسبب إهماله عرّض كل طاقمه للخطر، لن يجرؤ، بعْد غرَق السفينة هذا، على أن يجيء إلى ساحة بوردو. وما أرْعبَه هو نفسُه، أنّه فقدَ شرفه، فلا يستطيع أن يعيش أبداً." ثم أمْضى ما كتبَه وسلَّمَه لُمساعِد القُبطان.

حين حلّ النهار، تركْناه مع الجرّاح وواحد من البحّارة، بعْد أن أبعدْنا عنْه كلّ الأدوات التي يمكن أن يسيء استخدامها. عنْد صعودنا إلى جسر السفينة، رأينا أكثر منْ مائتي رجُل على الساحل؛ دعوْنا بحرَكات أيديهم إلى النزول؛ وبسببَ افتقارِنا إلى قوارب نجاة عمِلْنا على صُنْع طوْف نَجَاة.

عوَض أن تُثبّط فِعلة القبطان عزيمتنا أنعشتْها، اتّخذْنا الاحتياطات اللاّزمة حتّى يكون طَوْفِ نجاتِنا أكثر متانة، وأنهَيْنَا إعداده بسُرعة.

عِبْرة بمآسي اليوم السّابق انتظرْنا حتّى أدْنى جَزر، لكي نضع طّوف النجاة على البحر. أثناء ذلك قرّر واحد من المتوحّشين، كان أكثر جسارة مُقارنة مع مواطنيه الاقتراب منا. جعَلَنا نفادُ صبْرنا، في التطلع إلى معرفة أي شعب يوجد على الساحل، نُعجّل بأن نمدّ له حبلاً فصعَد إلينا بُعيد ذلك. أخبرَنا أنّه مغربي. وهو واحد من رعايا ملك المغرب[12]، وأنّ رفيقيْنا ما يزالان على قيد الحياة، وبما أنّه كان في عجلة من أمره للشروع في النهب، فعوض الإجابة عن أسئلتنا، طلبَ منّا

[12]- المقصود السلطان **سيدي محمد بن عبد الله** حكم المغرب من سنة 1757م إلى سنة 1792م.[المترجم].

المال. قلتُ له: "يا صديقي، خذ صرة نقودي واعتني بي." أسالت صُرة نقودي لعابه وكان متعطّشاً للمزيد. وصارت في مِلْكيته بُعيْد ذلك. لكنّه كان ناكراً للجميل وطمّاعاً فألحّ مرة أخرى طالباً المزيد من كرمي: وهدّدني لكي أعطيه هبات أخرى.

لاحظ مواطنوه طريقة معاملَتِنا له، وعلى الفوْر امتلأَ البحر، وامتلأت السفينة بُعيْد ذلك بهِم، وكانوا حينَها أعزّ منّا نفراً: وكان ينبغي علينا الوصول إلى الساحل، فألقينا الطّوف على البحر، ركبَه عشرة من أفراد الطاقم كنتُ من بينهِم.

# الأسْر

بينما كان من تبقّوا بالسفينة يستغيثون بالمغاربة الذين كانوا يستعجلون، سباحة، قصد الصعود إليها، بذلْنا نحن مجهودات كبيرة كي ننجو بأنفسنا. هبّت موجة عنيفة وانكسرت على طوفِ نجاتِنا، استطاع خمسة من رفاقي في المحنة البقاء على متْنه. جُررْتُ مع باقي الأربعة الآخرين، أردْتُ التمسّك بواحد منهم كان سبّاحاً ماهراً، جعله استشعارُه خطره الخاص غير حاسّ بخطري، فرمَاني بعُنْف؛ تدحرجْتُ عدّة مرات على الصخور، ابتلعتُ حينَها كمّية كبيرة من الماء، خانتْني قواي؛ انقلبتُ على ظهري وهمتُ تحت رحمة الأمواج دون أن أتمكّن من الاقتراب من الساحل. كنتُ حينَها فاقداً للوعْي، حينَ جاء ثلاثة مغاربة رموا أنفسَهم في البحر سِباحة لإنقاذي، أمسكُوني وجرُّوني إلى البرّ، قيّدوني من رجليّ، دعكوا بطني، جعلوني أتقيأ كل ما ابتلعته من مياه، وقرّبوني من نار كبيرة ثم غطّوني برمْل ساخن. استعدْتُ وعيي، فانتبهتُ إلى أنهم جرّدوني من ملابسي[13]، وتصارعوا بالسكاكين حول غنائمي.

---

[13]– كانوا يجرّدون الأسرى من ملابسهم بحثاً عن ما يمكن أن يوجد في ثنياتها وجيوبها من نقود مخبأة. [المترجم].

كان من بين الأربعة السيئي الحظ الذين رماهم البحر، السيد **باردون** (Bardon)، وكان ضابطاً في مُقتَبل الشباب كامل الجدارة، غرِق؛ واثنان كانا يجيدان السباحة وصلا بُعيْد ذلك إلى البر؛ أما الرابع فكان جد محظوظ لأنه استطاع الالتحاق بالطوف الذي رمتْ به الموجة نحو السفينة.

بقيَ ستّة على نفس الزورق هذا، وتمكّنوا من الوصول إلى الساحل، بعد أن كانوا، مدّة من الزمن، لُعبة بين الأمواج. وكان القُبطان يتوفّر على مزيد من القوة لمُقاومتها رغْم جروحه.

من بقوا بالسفينة كانوا أكثر حذراً منّا، ظلّوا ينتظرون حتى يهدأ البحر تماماً، وسواء سباحة أو مشْياً تمكّنوا من تجنُّب الخطر.

تحلّق أزيد من عشرين نفراً حوْل نار كبيرة، استطعْنا بفضْل الله، أن نخلّص أنفسَنا من الخطر. كُنّا منزوعين ومحرومين من كلّ ما نملِك، ومع ذلك كنّا أسْعد الناس. كُنّا مشغولين فقط بالخطر الذي تجنّبناه للتو، لم نكن نفكّر في بؤسنا الحاضر، ولا في المصير الذي كان في انتظارنا.

كان البحرُ قدْ رمَى للتوّ على الساحل جُثّة **باردون** المسكين. حين رأيناه قُمْنا: إذْ أن الرغبة في إعادته إلى الحياة أنعشتْنا، كان في نِيّتِنا محاولة إنقاذه ونجدته.

كان قائد المتوحشين المُمسك بسيف يُتابع خطواتنا، بدا له أنّه، دون شك،

أنّنا كنّا نريد العودة إلى السّفينة. ضربَنَا، بلا رحمة، ومنعَنَا من الذهاب إلى الشاطئ. ألقتْ بنا معاملة هذا المتوحش في قلق مُرْعِب. أردْنا، عبثاَ، أن نريه مواطننا، فلم يرد علينا سوى بمُضاعفة الضّرب. هيأتْنا هذه الصرامة لكلّ ما كان ينتظرنا من أحداث مؤسفة. لم نلمس ولو أدنى ذرة من الإنسانية في تصرّف هؤلاء المتوحشين، اعتقدْنا بأنهم لم يحتفظوا بنا إلا من أجل جعلِنا نُقاسي موتاً أشدّ عُنفاً من ذلك الذي كنّا قد نجونا منه للتو.

تحلّقوا حولنا، كان بعضُهم مسلّحاً ببنادق والبعض الآخر بسيوف، أو ممسكين بخناجر، أمرونا بالوقوف، فقُمنا دون أدنى مقاومة، وسِرنا براً مسافة نصف فرسخ بعيداً عن البحر، كانوا يسوقوننا كما القطعان، وكانوا يضربون كلّ من تخلّف منّا إلى الوراء، وفي الأخير أوقفُونا من أجل اقتسامنا.

لم يكونوا متفقين تماماً فيما بينهم حول هذه القسمة، رأيناهم عدة مرات يوشكون على ذبْح بعضهم بعضاً. وأخيراً اقتسمُونا إلى نِصفين، وقادونا أنا وثمانية من مواطني إلى الساحل. لكن بالكاد ما وصلْنا حتى احتدمتْ بينهم خصومات جديدة، ارتموا على جماعتنا الصغيرة، يتعلّق الأمر بمن يستطيع الاستيلاء على نصراني، تعاركوا بحدّة من أجْل امتلاكنا، ولم يستطع أي واحد منّا أن يكون في مأمن من تأثير احتدام صراعهم.

افترقْتُ، مُكرهاً، عن رفاقي في المحنة، مثقلاً بالتّعب والخوف، ورُعب كل

ما كان يحيط بي، كنتُ أعدو دون أن أعرف أين أضع قدمي.. رآني بعض المُتوحشين، فطاردوني وأمْسكوني، وجرّوني بسُرعة إلى أعلى الجبل، وسارع آخرون وانتزعوني من بين أيديهم، وكانوا هائجين لأنّني لم أستطع مقاومة عُنف منافسيهم، جعلوني أتحمّل أسوأ المعاملات اللا إنسانية. سقطتُ بلا حركة على الرمل. كانت توجد على مقربة من هناك نار كبيرة مشتعلة في المكان حيث كانت تُوجد إقامة النساء، قرّبوني من ذلك اللظى فأنعشتْني حرارته. شرعتُ مجدّداً في استعادة استعمال حواسّي، لكنّني كُنْت أرى، من كلّ الجهات، بوادر موْت وشيك، ولم أكن أستشعر وجودي إلا من خلال فرْط أضراري.

في المساء اقتربتْ منّي جماعة من أولئك المتوحّشين، ظننْتُ أنها كانت نهاية حياتي، لم أر أيّ فرنسي، اعتقدتُ أنهم كلهم قُتلوا أثناء هياجهم، كانوا ينظرون إليّ بفرح مُرعِب، كانوا يُغنّون ويرقُصون حولي، وتحلّقتْ نِساؤهم المحتشدات في ذلك المكان حولي، لم يفكّر أي أحد منهم في أن يقدّم لي قطعة من الثوب لتغطيني. كُنتُ مرعوباً بآلاف الأفكار المخيفة بعضها مثل البعض الآخر، كنتُ أريد معرفة أي مصير كانوا يخطّطونه لي، طلبتُ منهم إن كانوا يرغبون في إنهاء حياتي. فوجئوا بقلقي الذي لم يكونوا يعتقدون أنهم سبّبوه لي بتصرّفاتهم تلك، فاستعجلُوا بطمأنتي. وضع بعضهم غطاء على ظهري، وسارع البعض الآخر نحو الساحل وحملوا إليّ خبزاً مبللاً بماء البحر: أكلتُ منه قليلاً. كانت الفرحة وحْدها، التي

انتابتني حين علمتُ أنهم لم يكونوا ينوون انتزاع حياتي، كافية لإنعاش قواي. عاد الهدوء ليرتسِم على محيّاي، بدا أن حالي الجديدة قد أسرّتْهُم قليلاً، اجتمعوا بالقُرب منّي وانشغلوا بالعديد من الأمور منها الزيادة في أمني.

كان أولئك السكان خشنين جداً، إذ أنهم لم يستطيعوا الخروج من الاندهاش حيث رماهم جهلي بلغتهم. فلم يفكّروا حتى في التعبير عن أفكارهم بالحركات، لقد كانوا يظنون أنه ينبغي عليّ فهمهم، كما يتفاهمون فيما بينهم. وفي الأخير حين تعبوا وتأكدوا أنني لم أكن أستطيع الإجابة عن أسئلتهم، تركوني، وجعلتني نساؤهم أقضي ليلتي على الرمل واعتنَين بوضع قطعة خشب وراء رأسي حماية له من البرد. كنتُ مثقلاً بمآسي وبتعَب الأيام السابقة. واستسْلمتُ أخيراً للنوم.

قضيتُ حوالي ثلاث ساعات في راحة عميقة. إلى أن استيقظْت في منتصف الليل بسبب ضجيج أحدثه أسْيادي، فاستسْلمتُ لبعض الأفكار الرّهيبة جداً. ماذا سأصير؟ ماذا ينوي فعْله هؤلاء المتوحّشون بي؟ ما مصير رفاقي في المِحنة؟ (لم أعرف عنهم، يوم أمس، أي شيء) هل سيبيعونَني كعبْد، أم سيحتفظون بي بينَهم منْ أجل استعمالي في الأعمال الشاقة والحقيرة؟

كانت الشمس قد لاحت في الأفق، وكنتُ ما أزال مضطرباً بتلك الأفكار المُرْوِعة، لم أكن بعدُ قادراً على التجرّؤ على رفْع عيني لتبيّن الأشياء التي كانت

تحيط بي، وأخيراً سحبتْني الرغبة في معرفة كيف أصْبح رفاقي في المحنة، وكيف تمّت معاملتهم، من الإغفاءة التي كنت مرمياً فيها. رأيتهم مشتّتين من كل ناحية، ولا واحد منهم كان قادراً على التجرؤ على الابتعاد عن المكان الذي حدّدوه لنا.

تمكّن جرّاح سفينتنا من الحصول على ترخيص من سيّده يسمح له بالذهاب لرؤية القبطان الذي كان جرحه في حاجة ماسّة إلى ضمّادة، إلا أنه لم يكن يتوفّر على الأدوية اللازمة، فلم يستطع أن يقدّم له ما كان في حاجة إليه من إسعافات. قلّد مبادرة الجراح، تُجاه القبطان، كثير من البحارة؛ وسرْت على نهجِهم، وتبِعني آخرون، وبُعيْد ذلك وجدْنا أنفسَنا مجتمعين باستثناء واحد من الرّكاب وبحّار متدرّب، اللذين لم يستطع أي واحد منا معرفة مصيرهما، إذْ تمّتْ رؤيتُهما في اليوم السابق يجرّهما المتوحشون.

كُنّا نعتقد أن لهؤلاء المتوحشين رئيساً، لأنّنا لاحظْنا بعض الخضوع فيما بينهُم، اعتقدْنا أنهم ذهبوا إليه كي يقدّموا له مواطنينا الاثنين.

كان يرتسِم ألمٌ قاتمٌ على كل وجوهنا، بكيِنَا سَوية على مصيرنا المُحزن، لم يكن يقاطع حديثَنا سوى تنهيداتنا الطويلة، لم نكُن نجرؤ على التفكير في المستقبل: وما جعل وضعيتنا جدّ مخيفة، هو توقّع مدّتها واستمراريتها. كان يبدُو أن نهاية أسْرنا لا يمكن أن تكون إلا بموتِنا. حتّى الأمل المواسي عادة للمنكوبين حرمَنَا نفْسَه من تِلْك الأوهام اللذيذة. قضينا النّهار كلّه في رفْع معنويات بعضنا

البعض؛ واضعِين ثِقتَنا في الكائن الأسْمى وتَضرّعْنا إليْه بصوت جماعي، وعزمْنا على الخُضوع، برُضوخ، للأوامر الصّارمة لَمشيئتِه.

في المَساء، فرّقنَا أسْيادُنا المُخْتلِفون، أعطونا، مثْل الليلة السّابقة، خبزاً مبلّلاً بماء البَحْر، جعلَني ما كان يجتاحني من جُوع رهيب أجدُه غاية في اللذة، ثم استلقيْتُ على الرّمل، مُعرَّضاً لأضرار الرّياح.

# بداية الاستعباد

في اليوم المُوالي تلاقيْنا، ليْس في المكان حيثُ كان القبطان، وإنّما على الساحل، حيث قادنا سادتُنا إلى العمل. بمُجرّد ما استطعتُ الوقوف؛ أردتُ، عبْر مجموعة من الإشارات، أن أُفهمَ سيّدي أنّني جدّ مُتعَب ولا أستطيع القيام بما طلبه منّي من أعمال. لكنّ أدلّتي وقعتْ في أذن أخرس. فضربني لإجهادي على تنفيذ أوامره. جاء الكثير من البحّارة الذين كانوا شهود عَيَان على ذلك المشهد، لنجْدتي، وأعانوني بسواعِدهم، فتمكّنْتُ من دحْرجة العديد من البراميل إلى المكان حيثُ اعتدْنا المَبيت.

وعنْد المدّ تمّ إيقافُ عملي. كُنتُ أعتقِد أنّه بمُستطاعي التخفيف من إنهاكي بقليل من الراحة، لكنّ فجأة كلَّفني سيّدي بعمل جديد. لقد كنتُ أجهل تماماً لغتَه: فأجْهدَ نفسَه، ليُفهِمني، عبْر الإشارة، بأنّه يأمُرني بالذهاب لإحضار الحطب؛ زوّدني بحبْل مُعتقِداً أنّه الأداة اللازمة لتِلك المُهمّة، بذلتُ مجهوداً كبيراً كي أصعد إلى جبَل مجاور كان مكسواً بنبتتي العليق والخلنج، وكانت قدماي حافيتين، لم أكُن مكسواً سوى بقميص سيّئ كنتُ لبسْته في اليوم السّابق.

وبما أنّني لم أكن أتوفّر على أيّ أداة لقطْع الحطب، فقد مزّقت يديّ وأدميتُهُما

أثناء انتزاعي لما بدا لناظري من جذور الخشب الميّت، وبعْد ساعتين من البحث والأتْعاب، تمكنْتُ من استكمَال حُزمة. حملتُها على ظهْري، فنفذَ شوْك أغصانها إلى كتفي اللّذين لم يكُن لي أيّ لباس لحمايتهما.

وصلْتُ إلى مكان إقامتِنا، مُدرّجاً بالدم وخائر القوى، وبمُجرّد ما وضعتُ حزمتي، حتى بيّنت لي بعض النساء، ضاحكات، بأنني لم آت بالحطب الذي كنّ في حاجة إليه؛ فعرّفنني على نوع الحطب الذي يشعلنه عادة، وأمرْنني بالذهاب لإحضاره. عبّرت لهن، بالإشارة، بأنّني جائع، أجبْنني بأنهن لا يتوفّرن على أي طعام يُقدّمنه لي، ذهبتْ واحدة منهن إلى بيتها فظننتُ أنها ستجلب لي ما أسدّ به رمقي، إلا أنها لمْ تقدّم لي طعاماً إلا مع مغيب الشمس.

في يأس تام، أُجْبرْتُ على العودة إلى الجبل الذي نزلتُ منه للتو، لكن بمُجرّد ما انتزعتُ بعْض القطع من الحطب، حتى رأيتُ امرأتين قادمتين نحْوي، ساعدَتاني في جمْع حُزْمة حطب جديدة، كانت أثقل من الأولى؛ لم أسْتطِع السّير عشرين خطوة حتى وقعتُ تحت ثقل الحُزمة. عادت المرأتان إلي وحملتا الحُزمة مجدّداً على ظهري، فسقطَت مرّة أُخرى، وفي الأخير قُمْنا بتقسيم الحمولة إلى قسمين، حملتُهما على دفعتين إلى محلّ إقامتنا، وخلدْتُ للراحة فيما تبقّى من النهار منهكاً بالألم والتعب أتضوّر جوعاً.

في المساء رأيتُ تلك المرأة التي سبق لي أن تكلمتُ عنها، قادمة نحوي،

جُلت بعيني فيما كانت تحملُه من أشياء، لم أرَ أطعمة. كنتُ نافد الصبر، مضغوطاً بالحاجة التي كنت أحس بها تزداد شيئاً فشيئاً. طلبتُ منها ما آكل فأخذتْ تضحك، وقالت لي: اصبر.

وأخيراً في العاشرة ليلاً، نادى عليّ سيدي، وحمَل إليّ حليباً في وعاء جلدي غير نظيف ومنفّر، وأفرغَه في آنية خشبية، وبعْد أن أضاف إليه بعض الحصى الساخن، أشار إليّ كي أشربه: وعلى الرغم من أن ذلك المشروب كان ذا مذاق منفّر، فقد بدا لي عسلاً لذيذاً، أُفرِغَ الإناء في لحظة، فلم أكن قادراً على الاشتكاء لأن مذاق المشروب الذي قُدّمت لي منه كمية كبيرة كان لاذعاً قليلاً. وبهذه الوسيلة استرجْعتُ قليلاً من قواي، وتمدّدتُ على الرمل وخلدْت للنوم.

في يوم 22 [يناير 1784م] عنْدَ شروق الشمس، كان يتوجّب عليّ السّير خلفَ سيدي على شاطئ البحر، واشتغلْتُ هناك، كما في اليوم السابق، في إفراغ حمولة السفينة.

في ذلك اليوم علمتُ أن الرّائد ورئيس النوتية وبعض البحّارين كانوا يخططون للهرب. ونظراً لخوفي من عدم تبصّر قرارهم، ذهبتُ إليهم، وجدْتهم مجتمعين، فاقترحوا علي الانضمام إلى مخططهم، أبديت لهم موافقتي حتى أستميل ثقتهم.. لكن حين اعتقدوا أنني منشرح الصدر، قالوا لي:

– سنهرب إذن.

قلتُ لهم:

– وكيف سنعيش؟ هل نعرف كم المسافة التي سنقطعها في الطريق لبلوغ أول مدينة؟ من سيكون دليلنا؟ من سيؤكد لنا بأنّنا لن نضل طريقنا؟ ألن تلتهمنا الحيوانات المفترسة المنتشرة في هذه المناطق؟ من سيضمن لنا بأنّنا لن يتم الإمساك بنا؟ وإذا ما تمّ ذلك. فأي مصير ينتظرنا؟

وأخيراً بعْد تفكير طويل مماثل، قلت لهم:

– أصدقائي، كيفما كانت شدّة وضْعنا، فنحن نعاني بصبر، وننتظر أياماً أخرى، يمكن لمصيرنا أن يتغيّر: هؤلاء المتوحشون لا ينوون قتْلنا. ربّما يمنحُوننا حرّيتنا.

فأذْعنوا لدعواي.

أبْديتُ لهم بأنّنا لسْنا في حاجة ماسة لأيّ مشاريع مماثلة دون جمع وجهات نظر كثيرة على الأقل، بدَل أن يترك كلّ واحد منّا يتعرّض لاقتراف تهوّرات تسبّب له في ندم أبدي. فتأثّروا بوجهة نظري، وأصبحوا هادئين، ووعدوني بأن يناقشوا معي، ابتداء من تلك اللحظة فصاعداً، كل مشاريعهم القادمة، ونُظر إليّ، منذ ذلك الحين، كقائد حذِر، يتوجّب اتّباع نصائحه. لم أهمل أبداً إقامة روح وحدة متينة وأخوة بينَنا، من أجل تجنّب كل مشروع هرب، ولاحظتُ، بكل سرور، مشاعر الأمن والسلم والانصياع والصبر التي كنت أود أن ألهمهم بها قد

سادت بينهم. ولاحظ أسيادهم الذين كانوا جد متوحشين، خضوعهم لي، وكان كل واحد منهم، حينما يكلّمني، لم يكن يسميني سوى الكومندو (وهو اسم احتفظتُ به بينهم حتى وصولي إلى موكادور).

هكذا هدأت الأمور، التي كانت مصْدر قلق بالنسبة لي على الأقل. واصلتُ أشْغالي المعتادة؛ كنْت أحْمل أحياناً أكياساً، وأحياناً أخرى أدحرج براميل، وكان طعامي كل يوم هو نفسه لا يتغيّر؛ قليل من الحليب في الصبح والمساء.

في الوقت الذي ظللنا فيه على شاطئ البحر، كان المغاربة يقتسمون براميل القمح الصلب التي كنا نجرّها من السفينة، كان سيدي يعطيني كل صباح قيمة ثلاث حفنات منها من أجل إعداد خبز، وعلى الرغم من صغرها فقد كانت تكفيني ليوم بأكمله. وفي المساء كنتُ أذهب لانتزاع الحطب، وعند عودتي كنت أشرب قليلاً من الحليب الحامض، ثم أنام إن أردْت، كل يوم معرّضاً لأضرار الهواء.

# الاختطاف

في يوم 23 [يناير 1784م] قبْل استئنافي أشغالي، توجهتُ إلى مختلف الأكواخ لأقوم بزيارة تفقدية لرفاقي في المحنة، فوجدْتهم ما يزالون مطمئنين. وبدوا لي أنهم رهْن إشارتي في ألا يقْدموا على أية خطوة دون الأخذ بمشورتي. بعْد أن تركْتهم، شعرتُ بأنّني أُوقفتُ فجأة، أو أُلقِي عليّ القبض، لقد كان الفاعل مغربياً، أمسك بي، وكان يريد إجباري على الدخول إلى كوخه. ونظراً لمعرفتي بالمزاج المتوحش والقاسي لسيدي، قاومتُ؛ فسدّد ذلك المتوحش لكمتين إلى وجهي، وأسقطني، وجرّني إلى داخل كوخه، وهدّدني بالقتل إن أنا تجرأتُ على الخروج من هناك. وابتعدَ مُنشغلاً بالانتفاع من بعض بقايا حمولة السفينة. وهو يعرف أنني لستُ له وخوفاً من أن يلْحقني سوء ما إن بقيتُ في كوخه، أردْتُ استغلال غيّابه، لأبتعِد بنفْسي، وأعود إلى كوخ سيدي. في الوقت الذي كنتُ أوشك فيه على الخروج، جرى نحوي، ربّما أنّه أُنذر أو أنّ احتراسه حملَه على العودة لتشديد الحراسة عليّ، وأخذ يضربُني حتى أنهكني.

تعرفّني العديد من المغاربة الذين كانوا شهوداً على ما جرى لي، وذهبوا إلى

سيدي ونقلوا له ما حدث. لم يتأثّر هذا الأخير بفُقداني وإنما كان غاضباً من كون شخص آخر تجرّأ على ضربي. تسلّح بخنجره وبُندقيته، وسارع نحو مُختطفي، ليطلُب منه تفسيراً لما أقدم عليه، وأيضاً من أجل استعادتي. فوجده مرفوقاً بستّة من أصدقائه، كانوا بدورهم مدجّجين بالسلاح، كانوا في انتظاره. وبما أنّ سيدي كان غير قادر على مواجهتهم رجع ليستنجد بأفراد من عائلته. عمِل ما في وُسعه من أجل تخليصي من بين يدي عدوّه. حينها صارت القوى متكافئة، هاجمه سيّدي بشدة، ووجّه إليه عدة طعنات بسكينه، ومدّده على الرمل: وأثناء ذلك عمل مغاربة آخرون من أقاربه أو من قبيلته على افتكاكي من الحجز، وقادوني نحو كوخ سيدي.

انتهتِ هذه المعركة الصغيرة، أُثير أقارب أو بالأحرى حشْد متوحشي قبيلة مختطفي، الذين كانوا بأكملهم منشغلين على الساحل، بصيحات النساء، ومهتاجين بأقوال من كانوا مُكرهين على البحث عن خلاصهم عن طريق الهرب، اجتمعوا وهم مسلحين بالسيوف والبنادق، وهرعوا للانتقام بمواجهة من كانوا قد استقبلوهم للتّو في شخص واحد من رؤسائهم.[14]

---

[14]– المكان الذي غرقنا فيه كان متاخما لإقليم المسلميين، والمشواريين سكان إقليم يقع في الجنوب قليلا، كانوا هم الأوائل الذين انتبهوا إلى غرقنا، وتبَعا لحق مؤسس بينهم، ينبغي أن يعود لهم كل الأسرى، وكانوا هم أيضا سادتنا الأوائل.[المؤلف]

العديد من طلقات البنادق التي أطلقها أفراد قبيلة المشواريين الذين عادوا مندفعين إلى أعلى الجبل، أنذرت سيدي بالخطر الذي سبّبه، وعلى الفور جمع رجاله، وهرعوا كلهم إلى أسلحتهم؛ تقدّم رجال قبيلة المسلمين بانتظام، وكان المشواريين أكثر شجاعة منهم، بدوا صامدين، ومُجتَمِعين يرأسهم قائدهم، وكانوا يُطلقون صرخات مرعبة؛ وهكذا تحوّل الصراع بين شخصين إلى صراع بين قبيلتين بأكملهما. بعض النسوة اللواتي لم تكن متأكدات من نتيجة المعركة تلك قُدْننا حينها داخل البر. خوفاً من أن نُصاب بجروح، في حال هزيمة أسيادنا، نبّهننا أيضاً للابتعاد عن ساحة المعركة. الكل كان ينبئ بمعركة وشيكة ولا مفرّ منها. حينها اندفعت النساء المضطربات والباكيات وسطهن، انتزعوا أسلحتهم، هدّأن بدمُوعِهن وتوسّلاتهن هيّاجهم المُمِيت الذي كان يحرّكهم. حينها تقدّم قائد المسلميّين وحيداً نحو المشواريين الذين أوقفوا تقدّمهم؛ برز واحد منهم للاستماع إليه، وبعْد لحظات من المقابلة، عاد كل واحد مِنهما إلى قبيلته، حلّ وقت السلم، فعاد المسلمين إلى أكواخهم، وحذا المشواريين حذوهم، وضع الجميع السلاح، وتوجّهوا نحو السفينة لمواصلة الاغتناء من غنائمنا.

أعادني سيدي إلى الشاطئ، منحني مطلق الحرية في الذهاب إلى حيث أشاء، الشيء الوحيد الذي أجْبرني عليه كان هو أن أوفّر له كل يوم زاداً من الحطب لكوخه، ولم يشغلني في دحرجة البراميل ولا حمْل قُضبان الحديد الخ. وهكذا

انتهَى ذلك اليوم الذي بدأ بشكل مُهلك بالنسبة لي، والذي كان يبدو أنه لا يهيّئ لي سوى أخبار سيئة، ومهْما حدث من عراك فقد عاد عليّ بالعكس بتعامل أحسن وألطف، اهتم سيدي، أكثر من ذلك، بشخصي وعمِل على إيقاف أشغالي.

مرّت أربعة أيام على هذا النحو. كنت في الصباح أهيّئ خبزاً يكفي لإطعامي النهار بأكمله، أُضْرم ناراً كبيرة فوق الرمل، أرمي على الجمر، قليلاً من العجين، وحينما يُطبخ أسحبه. وكان الخمر الذي سحبته من السفينة بمثابة شراب لي.

في يوم 27 [يناير1784م] اجتمعتْ هاتان القبيلتان اللتان أتعبهما البقاء مدة أطول على شاطئ البحر، وسواء إن نظروا إلى ما تبقّى من السفينة بأنّه غير مفيد لهم، أو سواء أنهم لم يتوافقوا على قسمته كما ينبغي، فضّلوا نسْف ما تبقّى من السفينة. فأضرموا فيها النار: رأيناها بعد ذلك ملتهبة؛ لكن لم ينفذ هؤلاء المتوحشون إلى داخلها، فقد تبقّى بها 12 برميلاً من الرصاص وبالرغم من أنها تبلّلت بمياه البحر، فقد كان انفجارها قوياً جداً، سبّب في إصابة 50 مغربياً بجروح ووفاة ثمانية.

# قتْل القبطان

في يوم 28 [يناير 1784م] تمّت مغادرة الشاطئ، حُمّلت الجمال بكل الحوائج التي تمّ سحبُها من السفينة، وفي الزوال كان كل المتوحشين قد اختفوا، اصطحبوا معهم عبيدهم، إلى جهات مختلفة، دون أن يسمحوا لهم بمعانقة بعضهم البعض قبْل الافتراق.

كنتُ أعتقد أنّني الفرنسي الوحيد الذي بقي على الساحل، قبْل أن أرى القبطان قادماً نحوي. كان مشوّهاً بجُروحه، كان نظره شارداً، وكان وجهه مُدمى وشاحباً، وكان فمُه حينها قد تآكل. وصار موتُه وشيكاً، كان يتمايل في مشْيته، وكان بالكاد ما يقف على قدميه، ولو أنّه كان يستند على مغربيين قاداه نحوي وابتعدا على الفور، ولا واحد من أولئك المتوحشين كان يريد الاعتناء به، لأنه لم يكن بالنسبة لهم سوى عبد، إزعاجه أكثر من نفْعه.

بادرتُ إلى لقائه، كان قلْبي متضايقاً، كانت دموعي تنهمِر بغزارة، لم يعُد بالنسبة لي ذلك القبطان المتهوّر، والذي كان وقوعي في الاستعباد من تبعات أخطائه، لم أر فيه سوى مواطن يعاني ويحتضر، تجاوزتْ آلامه آلامي: فرْط آلامه

جعله عزيزاً عليّ، مُهماً وجديراً بالاحترام. استعجلْتُ القيام بكل ما كنت قادرا على تقديمه له من مساعدات. وبما أنّه لم يكن بمستطاعي إيواءه بكوخ سيدي، الذي سيرفض استقباله، عجّلتُ بتهييء كوخ له بواسطة ما جمعتُه من نبات العليق، وبعْد ساعة من العمل استطعتُ أن أمنحَه مأوى، وأن أجْعله في مأمن من أضرار الهواء.

بدا أنه فوجئ بتعاطفي بعد أن ألهمه المغاربة المزيد من الرعب؛ فقد وجد أنه ما يزال هذا الشعور الأخير في قلب رجل كان سبباً في محِنته. وبما أنّ لسانَه كان مجروحاً وممزّقاً، لم يستطع النطق سوى ببعض الأصوات المُبهمة، فخطّط على الرمل آخر عبارات امتنانه، متوسّلاً إليّ لأعفو عن تهوّراته، التي كنتُ ضحية لها، وألاّ أتخلّى عنه في اللحظات الأخيرة لحياته التي يُؤسف لها. طمأنتُه بكل ما هو إنساني، كمشاعر الشفقة والرأفة، من أجل مواساته، وبفيْض من العواطف. وأعربتُ له، عبْر تصريحات متكرّرة، عنْ رغبتِي، إن استطعْتُ، بعنايتي، في تمديد وتقوية النبض الخفيف الذي تبقّى له في الحياة.

لكن فجأة سمعْتُ صرخات مغربي، جرى نحوي باندفاع، ووصل فوراً، بالقُرْب منّا، وأمَرني بحركات مهددة، بالابتعاد عن القبطان. عزّ على قلبي كثيراً أن أتْرك وأتخلّي عن ابن بلدي وهو يحْتضر. ظللتُ بجانبِه رغْم تهديدات المغربي. وتعبيراً عن غَضبِه من مقاومتي، وجّه نحْوي بُندقيته التي كان مسلحاً بها. كنتُ

سأهلك إن لم تكن هناك نساء معاينات لذلك المشهد، وإن لم تطلبن منه العفو وإزالة سلاحه. بالنسبة لي لم أكن أنتظر سوى الموت، معتقداً أن هؤلاء المتوحشين ليسوا في حاجة إلينا؛ كانوا قد أبادوا، بلا رحمة، رفاقي، لم أبد أي محاولة للانفلات من آخر طلقة كان يهيّئها لي ذلك المغربي، ظللتُ رابطا الجأش بلا حراك.

ومع ذلك كان ينبغي الإذعان للقوة، كان يتوجّب عليّ العودة إلى كوخ سيدي، والتخلّي عن القبطان سيئ الحظ الذي مكث بالكوخ الذي بنيتُه له على عجل. كانت نهاية النهار تقترِب، وكنتُ في حاجة لأن أخلد للراحة. لكن قلقي على المصير الذي رُسم لي، وعن المصير الذي كان يُعدّ للقبطان، والضجيج المتواصل الذي كان يُحدثه المتوحشون، كل ذلك منعني من الانصراف إلى الراحة. كنْت عاجزاً عن الارتماء في نوم عميق، كنتُ أراقب بانتباه كل مساعيهم.

في مُنتصف الليل، اقتربَ العديد منهم منّي، لكي يتأكدوا من أنني نمتُ، فضاعف ذلك الفضول من انتباهي وقلقي وتخوّفاتي. عبْر الأغصان التي كانت تشكّل حائطاً للأكواخ، كنتُ أستطيع رؤية ما يجري داخل الكوخ الذي جعلته مأوى للقُبطان وقد كان جدّ قريب من كوخ سيدي. بُعيد ذلك رأيت المغاربة يجبرُونه على أن يبتَلع، بواسطة قرن ثور، مشروباً. رماه، في فتور متقطّع، وبعْد ذلك قتلوه بضربات مقابض بندقياتهم. سمعتُ، بارتعاش، صرخته وتنهيدته

الأخيرتين.

ظللتُ مصعوقاً بالاحتياطات التي اتخذوها لإخفاء هذا القتل الفظيع، وانتظرتُ حلول اليوم الموالي، لكي أريهم أنّني كنتُ شاهداً على جريمتهم، ربّما يمكنهم أن يجعلوني أموت بنفس الوحشية. عنْد الفجر اقترب منّي المغربي الذي كان يريد قتلي في اليوم السابق وأخبرني أن القبطان مات. وأراد أن يقودني إلى القرب من جُثته، لكن ذلك المشهد كان جدّ مهول بالنسبة لي فامتنعتُ عن الذهاب معه.

# الرّعي

في العاشرة صباحاً، توجّه سيدي عائداً إلى الجبال حيث توجد إقامته المعتادة. وسرْتُ خلفَه، مكسواً بقميص رث، حافي القدمين ودون قُبّعة تقي رأسي من حرارة الشمس الملتهبة. كان من الصّعب توقّع درجة حرارة الشمس المستعرة التي جعلتني أعاني، إلى جانب بعض الآلام التي سبّبها لي السّير حافياً على أحجار حادّة، طوال النهار بأكمله. وأخيراً، في السادسة وصلنا إلى مسكن سيدي الواقع بين جبلين.

كانت عشرة أكواخ تقع على مسافة متساوية فيما بينها، تشكّل قرية صغيرة كان سيدي هو رئيسها. وجاء المغاربة يهنّئونه على عودته.

وعلى الفور صرتُ موضوعاً لفضُولهم، تزاحموا حولي، وكانوا ينظرون إليّ باندهاش بل بكل سرور أيضاً. أبدوا لي كلّهم العديد من الإشارات، لم أكن أتبيّن معناها، وكلّموني بصخب لغة لم أكن أفهمها، بعْدُ، كما ينبغي. وقضوا جزءا من الليل في الغناء واللهو.

لم يكن لهؤلاء المتوحشين مسكن آخر سوى خيمة من ثوب منسوج من شعر الماعز ومن وبَر الجمال، ممدّة فوق عصي طويلة تبلُغ ما بين ثمانية وتسعة أقدام، لا يوجد بها أي أثاث آخر، سوى بعض جلُود الماعز التي يستعملونها في لباسهم وحصير من السمار، هو السرير المشترك لكل العائلة، للزوج والزوجة والأطفال. ساعات بعْد وصولنا شربتُ حليباً حامضاً، ولم يقدّم لي أي طعام آخر غيره. تمدّدتُ بعد ذلك وسط قطيع الماعز الذي يغلق عليه المغاربة داخل خيامهم أثناء الليل[15]، وذلك لوضعه في مأمن من الحيوانات المُفترسة التي اجتاحت تلك المنطقة؛ كنتُ مُنهكاً بفعل ما عانيته من تعب أثناء النهار. وبعْد ذلك استسلمت لنوم عميق.

ظللتُ يومين في ذلك المكان دون أن أُكلَّف بأي عمل. في اليوم الثالث، قبْل بزوغ الفجر، نُودي عليّ كي أذهب لجمع الحطب. أذعنتُ للأمر وعنْد عودتي قُدّم لي قليل من الحليب. وفي التاسعة صباحاً كان يتوجّب عليّ أن أسُوق قطيع ماعز إلى المرعى، رافقني طفل صغير ليريني المكان حيث أسوق الماعز. وقبْل غروب الشمس أعدْتُ القطيع إلى الكوخ؛ وذهبتُ بعد ذلك للبحث عن حُزمة حطب

[15]– كان العبيد والخدم ينامون وسط قطعان الماشية وهذا ما أكده المغامر كاميل دالوز، **خمسة أشهر لدى البيظان**، ترجمة حسن الطالب، منشورات مركز الدراسات الصحراوية، مطبعة أبي رقراق، الرباط، 2015، ص.108.[المترجم].

أخرى، وحينما حملتها أعطوني نصيباً من الحليب فقط، أكثر قليلاً من الذي قدّموه لي في الصباح. لم يكن لي أي طعام آخر غيرُه طوال المدة التي كنتُ فيها عبداً لدى مالكي الأول.

واصلْتُ، في الأيام الموالية، حياة الرتابة والرعي هذه والتي كانت تبدو لي لطيفة؛ إذ كانت تبدو لي الطبيعة في هذه الصحراء ذات طابع بهيج والتي تتزيّن في مناطقنا! لكن هناك بحثتُ، بلا جدوى، عن تلك المناظر البراقة، عن تلك المروج المكسوة بالزهور المتنوعة، عن تلك الغياظ الرطبة والكثيفة التي تزيّن القُرى الفرنسية، الأرض دائماً هنا جافة وعقيمة، لا يُرى بها سوى نمُو نبات العليق والخلنج، لم تُبد أي شجرة ظلّها. اجتاحني ظمأ شديد، ولم أجد أي جدول ماء لإرواء عطشي. أحرقتْني شمس مستعرة، ولم أجدْ أي ظل أستطيع أن أتجنّب تحْته أشعتها الملتهبة، التي لم أتمكّن من الاحتماء منها إلا بتغطية رأسي بقميصي بعْد أن طويته على شكل عمامة، كنتُ حافي القدمين، أجري، بلا توقّف، فوق الأشواك حتّى أتمكّن من جمْع قطيعي.

بهيامي في هذه العزلة المُخيفَة، كنتُ ما أزال مهمُوماً، بشدة، بالمِحن النفسية، بالغمّ المؤلم، أكثر مما أنهك جسدي المعتلّ من آلام جسدية. فتذكّري للخيرات التي افتقدْتُها، والسّعادة الهادئة التي كنتُ أنعَم بها في وطني، والرفاهيات التي كنت ألتذُّ بها بين أسْرتي، والأشخاص العزيزين الذين فارقتُهم، غالباً ما كانت

تأتي كلّها لترتسم في مخيّلتي. في بعض الأحْيان كان يجتاحُني أرق حادّ، كنتُ مُحترقاً بهذه الأفكار الحزينة. أركَع على ركبتي، أرفَع يدي المتوسلتين إلى السماء، وعيناي غارقتين في الدموع، وفي بعض الأحيان كنتُ أستسلم لفقدان الأمل الأعنف، كانت حياتي مقيتة، كنتُ أرغب في أن أخصّصها للبهائم التي كنتُ أرعاها. ندمتُ على عدم الموت أنا الآخر رُفقة ذلك الضابط الشاب الذي رمت الأمواج بجثته على الشاطئ، كنتُ أتشوّق لمصير القُبطان المنكوب الذي رأيته يُقتَل.

# العَمى

ذات يومٍ كنتُ منهَكاً بالحرارة والتّعب، جالساً أسفل هضبة، ضحية لتلك الأفكار الرّهيبة؛ ابتعَد عنّي قطيعي، وأخذَ يُغامر بالرعي بعيداً، حين جمّدني بالخوف زئير بَبْر رأيتُه بادياً فوق قمّة التّل، هروب سريع وحدَه كان كفيلاً بتخليصي من هيجان ذلك الحيوان المفترس. على مسافة قريبة رأيتُ بعض شُجيرات العليق سميكة وعالية نسبياً. جريتُ نحوها باندفاع. تمدّدتُ أرضاً خلْف هذا الملاذ، مفزوعاً جامداً، وكلّي خوف من كل شيء بما في ذلك تنّفسي. رأيت البَبْر يهجُم على قطيعي، خنق ثلاث عنزات وأخذ يلتهم لحمها الخافق: فتشتّت باقي القطيع في الجبل والسهل. وحين اختفى البَبْر جمعتُ قطيعي. لكنّني ازددتُ خوفاً من الغضب الفظ لسيدي، من أن فقدان ثلاث عنزات سيغضبُه، لم أكن أعرفُ ماذا أفعل؟ هل ينبغي عليّ العودة إلى الكوخ أم التخلّي عن القطيع والهرب في البادية؟ كانت الشمس حينها لا تظهر في الأفق، ولم أتمكّن من التوصل إلى قرار.

نفَد صبْر مالكي بسبب تأخّري وخوفاً من أن يعترِض قطيعه سوء، تزوّد بسلاحه للقائي، ولحِق به ابنه. ارتجفْتُ عند رؤيتهما. سألاني عن سبب عودتي

متأخراً؟ فكشفْتُ لهما عن السّبب. فور وصولنا إلى الكوخ، أجلساني دون أن يسمحا لي بحلْب العنزات، كما كنْت أفعل عادة. ولم يعطياني القطعة الجلدية التي كنت أتغطّى بها في موضع نومي الحقير. تزوّد مالكي الغاضب بحبْل وضربَني، مدة من الزمن، بقسوة شديدة عديمة الإنسانية، وكان دمي يسيل غدراناً من كل الجهات. وقعْتُ مغشياً عليّ. وأنا في حالتي التي يرثى لها، اوثق رجلي إلى عمود كان مغروزاً في مدخل الكوخ، وظللت هناك مرمياً ليلة بأكملها كانت شديدة البرودة والرطوبة.

حينما طلع النهار جاءا ليفكّا قيدي. لكن وا أسفاه! لم أكن قادراً على رؤيتهما: لقد فقدتُ البصر: وفرة ورطوبة الندى سببّا في هذا التأثير المضر بعيني. لقدْ سحقتُ وأضنيتُ بمصيبة غير متوقّعة. جعلتْني بضْع كلمات، سمعت مالكي ينطقها، أُدرك أنه ندِم على قسْوته، لكن زوجته كانتْ أشدّ قسوة منه[16]، وكانت غير مبالية بشدّة حالي، سمعتُها تقول بصوت خافت، بأنّني عبدٌ غير مُجْد، ومُزعج، وإن لمْ أستعد بصري في ثلاثة أيّام ينبغي قتْلي أثناء نومي. تصوّروا إن أمكن أي أفكار سوداء، وأي تفكير مُفقِد للأمل، تعمل على إنباتها في ذهني هذه اللغة القاسية، لم أكن أعرف على أيّ منها أستقِرّ: وقعتُ في إنهاك، لحظات بعد

[16]- وهذا عكس ما نجد في محكي **سونيي** والذي كان بدوره في نفس السفينة التي جنحت **بفوليي** ورفاقه، أكد في أكثر من مرة أن النساء كن لطيفات في التعامل معه. [المترجم].

ذلك، فقدْتُ، إن صحّ القول، الإحساس بوجودي. عُدتُ إلى ذاتي، ودعوت الكائن الأسمى، وتوسّلت إليه أن يُعيدني إلى الحياة أو ينتزعها مني.

أدخَلني ابن مالكي إلى الكوخ، ورشّ عيني [بدواء]، وقدّم لي قليلا من اللبن. وفي المساء اقترب منّي، وكلّمني بنوع من اللطف، ودعاني للنوم: لكن اليأس كان قد استقرّ بقلبي. فالراحة لم توضع من أجلي، نُحْت وبكيْتُ وصليْتُ، أقل ضجيج كان يُرعبُني. كنْتُ أعتقدُ، في كل لحظة، أنه سيتم التهييئ لتنفيذ النصيحة المتوحّشة التي اقترحتها زوجة سيدي، وأنه سيتم الاقتراب منّي وتُوجّه لي الضربة القاضية.

# مالك جديد

كان عمَاي قد دام حينها 35 ساعة، كانوا قد رشّوا عيني للتو [بدواء]، حين استطعتُ تبيّن زوجة سيدي بصعوبة، قمتُ بحماس وذهبْتُ فوراً نحوها، لأريها أن بصري بدأ يتعافى. فبدتْ أنها راضية. حين عاد زوجُها تلقّى الخبر بكل سرور، وفي مدة 12 ساعة أدركتُ أن عيني صارتا تُبصران بشكل جيد. شعرتُ بفرح لا يوصف لأن عيني قدْ شُفيتا. مُنذ تلك الحادثة أُعفيتُ من مهمة جمع الحطب ومهمة رعى القطعان، لم يفكّروا في شيء آخر سوى التخلّص مني. فلم تتأخّر كثيراً المناسبة التي كانوا ينتظرونها. مرّ مغربي من هناك وتمّ بيعي له مقابل ثلاث عنزات.

في يوم 14 فبراير [1784م] سِرتُ خلف مالكي الجديد الذي كان يسكُن في مكان يبعد عن الموضع حيث كنّا بحوالي مائة فرسخ: عرفتُ أنه كان أكثر ثراء من مالكي الأول؛ إذ كان يتوفر على عدد غير محدود من الأغنام والماعز والثيران والخيول، وكان يملك 87 جملاً، وستة زنوج وثلاث زنجيات، وكان واحداً من التجار الميسورين في تلك المناطق.

كنتُ أجْهَل تمَاماً أي أعمال سيكلّفني بها، وإلى أي مكان سيأخذني، سرتُ خلفَه حافي القدمين عبْر الجبال. وفي المساء رأيتُ أكواخاً اعتقدتُ أنها هي إقامته: كان عشرة مغاربة في انتظاره بذلك المكان، أكّدوا لي ذلك الاعتقاد؛ لم أتصور أبداً بأن هؤلاء المتوحشين ينشغلون بالتجارة، كنتُ أجْهل أنهم يحملون بشكل متواتر بضائع إلى الأقاليم البعيدة ليستبدلونها بالمواشي وبالصوف ويبتعدون عن منازلهم غالبا بأزيد من 200 فرسخا: لكن التجربة أكّدت لي، بعد ذلك، طول سيرهم الجوّال. يجدون حق الاستضافة لدى كل القبائل المنتشرة وسط الصحراء[17]، فهم ليسوا في حاجة لأن يحملوا معهم الكثير من الطعام، حين يريدون التزود بذخيرة خلال سفرهم، يتزودون بقميص وسكّين وبعض الأدوات الأخرى. تجلُب لهم أكثر ممّا يمكن أن يستهلكوه خلال ثمانية أيام. وهم دائماً مسلّحون بشكل جيد ويسيرون بأعداد كافية لمقاومة قُطّاع الطرق الذين يمكن أن يهاجمونهم.

لم أتذوّق الطعام تقريباً قبْل انطلاقِنا. لحْظة وصولنا. قدّموا لي دقيق الشعير مُذاباً في قليل من الماء؛ أكلتُه بلذة. ونمْتُ على صخور، جلبَت لي أتعاب النهار راحة هنيئة جداً.

---

[17]– هو ما يسمى بالتماس حق الضيافة والذي كان منتشرا في الصحراء حيث كان يجد العابرون التجار أين يقضون ليلتهم وما يأكلون هم وجمالهم. [المترجم].

في اليوم الموالي، ابتداء من الفجر، كان يتوجّب علينا مواصلة السير. لم نبلُغ بعْدُ العاشرة صباحاً، نفدت قوتي وعزمي، فتخلّفتُ إلى الوراء، باذلاً ما في وُسعي من أجل اللحاق بسيدي، الذي لاحظ أنني بعيدٌ عنه، وعلى الفور كلّف واحداً من المغاربة بإجباري على التقدّم، وامتثالاً للأمر الذي تلقّاه للتو، ضربَني بحبل جهة خاصرتي وبمجرد ما بدت خطواتي تتخفّف، كان يبدو أنه أدّى المهمة التي كلّفه بها سيّده بكلّ حبور. أكثر من عشر مرات في ذلك اليوم، كنتُ أجبَر على شُرب بول النوق والجمال لإرواء عطشي. تعرّضتُ لضربتي شمس، واحدة على مستوى الظهر والثانية على السّاقين اللتين كانتا قد تورّمتا بالتعب وكانتا تؤلماني بحدّة.

كان مالكي هو الوحيد الذي لم يتحسّر على مصيري أبداً، على الرغم من ارتجاف عام، خضع له جسدي، ورغم التهاب ساقي، فكان يصرّ دائماً على أن أواصل الطريق راجلاً، دون أن يريد السماح لي بامتطاء واحد من جماله. كان قاسياً وضاعف من آلامي، أيضاً، بالضربات المضاعفة التي كان يقهرني بها كل حين. طلبْتُ منه عدة مرات أن يقتُلني، لكنّه كان أصم في وجه دعواتي، كان يرفُض ولم يكن يُجبني سوى ببعض التهديدات.

وأخيراً وصلتُ إلى المكان المقترح للنوم، ولم أستطع تناول ما قدّمه لي أولئك المتوحشون من طعام: كنتُ أشكو من حُمّى عنيفة ألّمت بي امتدّت الليلة بأكْملها.

في اليوم الموالي كان ينبغي عليّ، مع ذلك، مواصلة السّير، بل أُجْبرْتُ على تصدّر المسير. كانت الشمس قد شرعت بالكاد في الشروق، كنتُ أعدمُ القدرة على المشي والتحمّل، رفضتْ ساقاي تماماً تقديم خدمتهما. حينها خاف سيدي، بلا شك، من أنْ أكون مسبباً في تأخير سُرعة سير قافلته، فأرْكبني واحداً من جماله. كانت قفزات هذا الحيوان تتْعبُني أيضاً، وبما أنّني بالكاد ما كنتُ أستطيع التماسك فوقه، ربطني المغاربة مع الجمل كي يدّخروا جهداً في تقديم أي عناية بي. واصلوا، خلال ما توالى من أيام، ربطي فوق هذه المطية، وفي يوم 25 فبراير [1784م] وصلنا، بعد رحلة دامت 12 يوماً، إلى أكواخ سيدي. اندفع زنجيان وعدة نساء للقائه؛ قدّموا لي بعض الطعام وكمية كبيرة من اللبن لأشربه.

تركوني في راحة تامّة مدّة ثلاثة أيام. كنتُ مكسواً بالجروح، وانتفختْ ساقاي وصارتا أكبر من جسدي، لاحظتُ أن بهما عدة فتحات شرعتْ في التقيّح. أثارتْ حالتي قليلاً من شفقة هؤلاء المتوحشين: ففكّروا في إسعافي الذي رأوا أنه لازم بالنسبة لي. مدّدوني على الرمل، وبينما أمسكني أربعة مغاربة بقوة، كوى سيدي اللحم المحيط بجروحي بواسطة شفرات سكين كانت قد احمرت فوق النار، عانيتُ حينها من آلام غير مسبوقة، كنت أطلقُ صرخات رهيبة، لكن هذا العلاج المماثل لهمجية أولئك المتوحشين مكّنني من البرء بسرعة.

في فاتح مارس تمّ تكليفي برعي الإبل ومنْعها من الرعي في الحقول

المزروعة حديثاً. وبما أنني كنتُ ما أزال غير قادر على مسايرة الخطوات العادية للجمال، عمل سيدي على تقييدها من قوائمها الأمامية. في الصباح، قبْل سوقها إلى الرعي، كان يقدِّم لي إناء كبيراً من اللبن، وآخر في المساء حين عودتي، وفي العاشرة يُقدّم لي حساء الشعير. كنتُ أنام بشكل جيد أحسن ممّا كنتُ عليه خلال استعبادي الأول، أخذتُ أسترجعُ قواي بشكل ملحوظ، وهو ما أدخل كثيراً من السرور على سيدي، فلم يكن ينظر إلي سوى ككائن يوشك على الموت، ولم يكن يهتم أبداً بالاحتفاظ بي. لكن عند رؤيته أنني بدأتُ أستعيد عافيتي، أصبَح ينظُر إليّ كعبْد ثمين يُمكن أن يعُود عليه بالربح الكثير، وكان ذلك، بلا شك، هو الدافع الذي جعله يحرِص على عدم تكليفي بمُهمة رعي الإبل. لقد اعتنى بي كثيراً، وحينما كان يراني حزيناً كان يقدّم لي اللبن والطعام والتبغ، وباختصار كان يوفّر لي كل ما كان يعتقد أنه قادر على التخفيف من آلامي.

جعلتْني طيبتُه ومعاملتُه الحسنة أنْسى وحشيته السابقة. وفي الغالب ما كان يصطحبني معه للتنزّه في البادية، وكان يستقي بعض المعلومات عن رفاقي في المحنة، وأخبرني أنهم تفرّقوا شذر مذر كلهم في يوم واحد تقريباً، وأنهم قريبون من المكان حيث كنتُ أوجد. لم يسبق لأي خبر أن كان رائعاً بالنسبة لي كهذا، آثار الأمل الذي طرد من قلبي، حتى ذلك اليوم، أخذتْ تُولد من جديد؛ تذكّر وطني أثار رغبتي في الاقتراب منه بدَل أن يوقظ النّدم على أن أكون بعيداً عنه. كنتُ

أطلبُ غالباً من سيدي أن يفكّر في بيْعي، كانت أجوبتُه تُعلن لي أن مصيري سيتغيّر في وقت وشيك، لم يحتفظ بي سوى من أجل الاستفادة منّي بشكل أفضل.

# الافتداء

وأخيراً حين رآني سيدي على الحال التي كان يرغب فيها، أخذني على متْن جمل إلى مدينة صغيرة تُسمّى **كليمي [كلميم]**. تقع على بُعد فراسخ من كوخ سيدي. فحصني مغاربة عدة مرات، ساوموني لكنهم لم يقعوا على اتفاق مع سيدي. فعاد بي مرة أخرى إلى بيته.

في اليوم الموالي جاء واحد من أولئك الذين رأوني بالسوق إلى كوخ سيدي. فوقعا هذه المرة على اتفاق وتمّ بيعي. وأصبحت عبداً لسيد ثالث والذي عاد بي إلى **كليمي** [كلميم] يوم 15 مارس [1784م].

حينها كان يُوجد مساعد القبطان[18] هناك، وكان هو أول واحد من مواطني أراه مُنذ افترقنا على شاطئ البحر. كان سيدي الجديد يُدْعى **محمداً**، وباعتباره رجلاً يعرف من أين تؤكل الكتف، باع نصف شخصي إلى يهودي يُدعى **هارون**. كنتُ أقضي ثلاثة أيام لدى كل واحد منهما. كانا يعاملاني معاملة غاية في الإنسانية، وكانا يكلّفاني بطحن الشعير، وجلْب الماء، وكانا يطعماني تارة شعيراً،

[18]– مساعد قبطان سفينتهم التي جنحت.[المترجم].

وتارة أخرى كُسكساً، وكنتُ أبيت مفترشاً التبن، بجانب بغلة واحد من مالكيّ، تحت سقف كان يغطي جزءاً من مساحته.

ومع ذلك لم يدّخر السيد مور (M. Mure)[19] نائب قنصل **فرنسا** في **الإمبراطورية المغربية** أي جهد لتكسير أسْرنا وتقريبنا من المناطق الخاضعة لحُكم الإمبراطور، كتب عدة رسائل إلى هذا الأمير، كما تمّ إرسال عدة رقاصين مغاربة لاكتشاف المكان حيثُ كُنا، ومن أجل جمْعنا؛ استعمل كل ما في وسعه؛ هدايا، وعود وأموال.

فما بذله من مجهودات من أجْل تخليصِنا من الاستعباد، كان يعرّضه هو نفسُه، لفُقدان الكثير من الحُظوة؛ لأنّ إمبراطور المغرب كان يغار كثيراً من منْح العبيد [الفرنسيين] المشتّتين في الصحاري حرّيتهم بواسطة مبعوثيه الخاصين، وفي الغالب ما كان يُلحق عقوبات قاسية بالأوربيين الذين اشتروا حرية مواطنيهم.

لكن الأوامر التي أصدرها الإمبراطور لافتداء الأسرى النصارى، لم تكن تُنفّذ بأمانة؛ فالحكام أو اليهود الذين كانوا يكلّفون عادة بتلك المُهمات، كان من مصلحتهم الاحتفاظ أكبر وقت ممكن بالمال الذي منَح لهم من أجل ذلك

[19]- كان ينوب عن القنصل الفرنسي **بسلا** السيد **روشي** بين 1786-1795، حين يغيب. [المترجم].

الغرض، ويُجبرون الإمبراطور على الانتظار وتقديم مزيد من المكافآت المهمة جداً، أو أنّهم لم يقوموا في الصحراء سوى ببحث غير مُجْدٍ. وكانوا يُقنعونه أيضاً بالتماطل، وبإجبار الأسياد على أن يحسنوا معاملة العبيد. وأن يبيعوهم بثمن مقبول. في الغالب ما يكلّف الملك نافد الصبر، بعدم تنفيذ إرادته بشكل سريع، مبعوثين آخرين، لكن هؤلاء الجدد، كانوا يوجّهون بنفس المصالح التي كانت تُحرّك السابقين، فيتّبعون نفس المسلك، ويظل العبيد يرزحون تحت نير العبودية.

ما كان يخشاه السيد مور هو تأخّر تحريرنا كثيراً، إذا لم يترك الأمر لوكلاء غير أوفياء للإمبراطور. فرغم المشاق التي تكبّدها، في ظرف مماثل السيد **شونيي** (M. Chenier)[20] قنصل **فرنسا** في هذه المنطقة من إفريقيا، ورغم الموانع المتعجرفة للأمير والخوف من العقوبات الصارمة التي كان يُهدّد بها تقريباً كل يوم من يعنّفونهم، لا شيء استطاع التقليص من همّته. إنه [السيد مور] شبيه بأب حنون يضحّي من أجل إسعاد أطفاله، فهذا الفرنسي الكريم، عرّض مكانته وثروته وحياته للخطر من أجل تخليص مواطنيه سيئي الحظ من البؤس.

[20] – لوي شونيي (Louis de Chenier) دبلوماسي ومؤرخ فرنسي كانت له مهمة سفارية في بلاد المغرب، في عهد لويس السادس عشر، وله كتاب عن المغرب هو: **Recherches historiques sur les Maures et Histoire de l'empire du Maroc** [المترجم].

ساعد السيدان **كابان** (Cabannes) و**ديبار** (Desparts) وهما تاجران مقيمان **بموكادور**، مساعيه الطيبة؛ فبعثا مغربياً يُدعى **بنطاهر**، كان موضع ثقة لديهما، والذي وصل بُعيد ذلك إلى **كليمي [كلميم]**.

وفي يوم 7 أبريل 1784م توافق مع سيديّ على ثمن افتدائي، أدّاه لهما على الفور، وأسرع بالذهاب إلى البوادي المجاورة حيث افتدى خمسة فرنسيين آخرين، وقادهم إلى **كليمي**، من حيثُ انطلقْنا مجتمعين يوم 11 من نفس الشهر متّجهين إلى **موكادور**.

# إلى موكادور

وخوْفاً من أن نكون عُرضة لهجمات المغاربة المتمرّدين، إن علموا بانطلاقنا، كان دليلنا يسير بنا إلى غاية منتصف الليل: حينها كنّا نبتعِد عن طريقنا ونذهب للاستراحة بسفْح جبل مكسو بأشجار اللوز البري، ونواصل طريقنا، بمُجرد ما يطلع النهار.

وفي يوم 21 أبريل 1784م، بعْد عشرة أيام من السير، وصلنا إلى **موكادور**، دون تسجيل أي حادثة تُذْكر، لكننا كنا مُتعبين بشكل فظيع.

على الفور بعث السيدان **كابان وديبار** رقّاصاً إلى السيد **مور**، ليُعلِماه بوصولنا، واستقبلانا كأصدقاء، كإخوة، آويانا وأطعمانا، وألبسانا، وأسعفانا، كل ما كان بإمكانه التخفيف عنّا قدّماه لنا بسخاء.

كان الفرنسيون والإنجليز والهولنديون وكل الأوربيين المقيمين **بموكادور** يزوروننا كل يوم، أعاد كلامهم الودود وعنايتهم المستعجلة إلى روحي سكينَتها، إذ أن تذكري لألمي لم يكن يبدو لي حينها سوى تذكر مُبهم لحلم فارغ.

باشر جرّاح الغرفة التجارية معالجة جروحي، فلم يجِد بها أي شيء يدعو للخطورة، كانت ثمانية أيام كافية لاستعيد عافيتي وصرت في حالة صحية جيدة،

حتى أظهر لدى كل التجار، الكل دون تمييز وطنهم، كانوا يستقبلونني بمحبّة متكافئة، استضافوني باستمرار وكنت أذهب بالتناوب لتناول الطعام في بيوتهم. كان الاتحاد الأخوي الرائع السائد بينهم بالنسبة لي مُتعة جديدة؛ اختلاف وتعدّد أوطانهم لم يُرْخ أبداً أواصر هذا الاتحاد؛ كانوا يعرفون ربط مصالحهم المحترمة ومصالح وطنهم، بالوئام والتناغم الجيد، الذي يتوجّب الاحتفاظ به بين النصارى.

كانوا يعرِفون عادات البلد حيث كانوا يعيشون، فكانوا على معرفة بأخلاق ومزاج المغاربة وعاداتهم. أسدوا لي، بكل ود، كل ما كنتُ في حاجة إليه من نصائح حتى أتمكّن من استباق المصائب التي يمكن أن أتعرّض لها منهم [المغاربة].

في تلك الأثناء أُعلمَ حاكمُ موكادور الذي قدّمني له هؤلاء السادة الإمبراطور[21] بوصُولنا. فغضب ذلك الأمير من أن تجاراً فرنسيين انتزعونا من

[21]– المقصود السلطان **سيد محمد بن عبد الله** أو **محمد الثالث** ولد بحاضرة مكناس، كان سلطاناً مغربياً من سلالة العلويين، حكم منذ عام 1757م حتى 1790 م كما كان حاكماً لمراكش عام1750 م محمد الثالث حكم بعد أبيه عبد الله بن إسماعيل. خلفه اليزيد بن محمد. بالرغم من أنه أصبح بشكل رسمي سلطاناً عام1757م عندما توفي أبوه، إلا أنه تولّى الحكم منذ عام 1746م، ولمدة 44 عاماً. [المترجم].

الاستعباد، عوض مبعوثيه الخاصين[22]، وحكم على العربي الذي كلّفه الفرنسيان بتحريرنا بالإعدام. حين علِم ذلك الرجل بالخطر الذي سيكون عرضة له، اختبأ بهرب مستعجل لدى الناس الذين كانوا قد نهبُونا، أصبَح شخصُه وممتلكاته ملاحقاً من قِبَل الإمبراطور.

تعرّض التّجار، من جِهتهم، لتوبيخات قاسية جداً، ومُنِعوا من التدخل مستقبلاً في استرداد أي نصراني، من أي بلد كان، وإلا أُحرِقوا وهم أحياء يُرزقون.

تلك الرسائل والقرارات الصادرة عن الإمبراطور، وسُلطته التي كان يعتقد أنها تعرّضت للإساءة، كل ذلك جعلنا نخشى مستقبلاً أحزن من الماضي. قضَينا ثمانية أيام في حيرة من أمرنا من جراء الخوف على المصير الذي كان في انتظارنا مهدّدين بأن نُستخدَم في الأشغال العمومية. وجرت إشاعة بين المغاربة أن فرنسا دخلت في حرْب مع ملك المغرب، وكان الناس ينظرون إلينا حينها كأعداء؛ خشينا من أن نكون عرضة لتعامل سيئ كانت تمنعُنا من الخروج. لكن في يوم 15 ماي [1784م]، في الحادية عشرة صباحاً، تلقّى الحاكم أوامر جديدة

---

[22] – وهو ما أكده الرحالة البولوني **يان بوطوكي**: "أن الإمبراطور قد منع أيا كان من الخوض في مسألة الفدية، لأنه يعتبرها ضمن حقه الملكي، فيريد أن يستفيد منه." **رحلة في إمبراطورية المغرب**، ترجمة **عبد الله باعلي**، مطابع الرباط نت، 2014، ص.95.[المترجم].

من الإمبراطور، فأرسل جنوده في طلبنا، وكلّفه الامبراطور أيضاً، بالإتيان بالفرنسيين اللذين سعيَا إلى تحريرنا، وبحضور كثير من الناس، أعلن لهما عن عفو الملك عنهما وأيضاً عن العربي الذي افتدانا، وردّ لهما علانية المبلغ الذي أدياه مقابل افتدائنا. استقبلنا [الحاكم] كما يجب، وأذِن لنا بالتجول بكل حرية داخل المدينة.

مُنذ تلك اللحظة صارت حرّيتنا كاملة. وبما أن المغاربة، يحترمون بخنوع إرادات أميرهم، الذي كانوا يعتقدون أنه منحدر من سلالة النبي، عبّروا لنا بإشارات عن المودة والتوقير، جاءت بعد ذلك الاحتقار الذي أبدوه لنا من قبْل.

قضينا شهراً كاملاً في هذه الوضعية، مُنتظرين، بنفاد صبر، أخباراً جديدة عن باقي أفراد طاقم سفينتنا الذين كنّا نعرِف أنهم تفرقوا في الجبال؛ أعلن لنا الحاكم بأنّنا لن نعود إلى وطننا قبْل وصول باقي الفرنسيين.

كانت نوايا الإمبراطور تقتضي بأن يظل القبطان **ديبوي** (Dupuis) من نانت و**أوديبير** (Audibert) من مارسيليا حتى يجتمع كل الأسرى. فأرسل للتو أوامر جديدة لواحد من أبنائه، وهو حاكم تارودانت[23]، من أجل جمع ما تبقى من أفراد الطاقم.

على الفور باشَر ذلك الأمير عمله. علم العرب المتمرّدون بذلك، فوضعوا

[23]– يقصد مولاي عبد السلام. [المترجم].

الشخص المطارد في مأمن تحْت حرمة **سيدي محمد موسى** أكبر ولي بالإقليم[24]. تم اقتياد ثمانية إلى مقرّ إقامة ذلك الرجل، وبقي اثنان بواد نون لدى أمير بمنزله. وكان القانون يمنع من الدخول إليه، والثلاثة الباقون كانوا تحت سلطة سيدي **مولاي عبد الرحمن**، وهو واحد من أبناء الإمبراطور كان ثائراً على أبيه.

لم ينجح حاكم تارودانت في حمْلته تلك، وكان يريد تنفيذ أوامر الإمبراطور عن طريق المال، فاقترح، إذن، شراء هؤلاء العبيد من كل مالكيهم. والذين طالبوا بثمن باهظ جداً. من هناك ذهب إلى أخيه، ليعمل ما في وسعه للحصول على الفرنسيين الثلاثة الذين كانوا وقعوا بين يديه، لكن ذلك الأمير رفض بعِناد إرجاعَهم وبيْعهم، وأعلَن أنّه سيعتني بهم، وحين يموت أبوه سيعيدهم إلى وطنهم.

[24]– كانت حرمة أضرحة الأولياء لا تنتهك، لذلك كان يلوذ بها بعض المطلوبين.[المترجم].

# إلى مراكش

حين تبيّن للملك كم هو صعْب جمع الفرنسيين من طاقم سفينتنا، أصدر على الفور أوامره لحاكم موكادور بإرسالنا إلى مراكش. استأذنا من كل التجار الذين أغرقونا في كرمهم وغادرناهم يوم 15 يونيه [1784م] ممتلئين بذكرى محبّتهم.

منح الحاكم كل واحد منا بغلة، وكان يودّ رؤيتنا أثناء انطلاقنا. ووضَعنا تحت حراسة جنود الإمبراطور. سِرنا في الصبيحات، لأن الحرارة كانت جدّ مُفرطة، وكان عدد أفراد القافلة كبيراً، كانوا يسوقون صندوق جمارك موكادور. وفي اليوم الأول من رحلتنا نفقَ جملان مختنقين بالحرارة.

استأنفْنا السير في اليوم الموالي قبْل طلوع النهار، وكنا مضطرين للتوقف كل تسع ساعات، وعلى الرغم من تلك الاحتياطات فقد سبّبت الحرارة في موت يهودي ويهودية.

كنتُ أعاني كثيراً، ففي كثير من الأحيان كنتُ أفقد القدرة على التنفّس، وكنتُ أسقط من على متن بغلتي. شمِلنا المغاربة بعناية كبيرة جداً، كان يتقدّمنا

القائد الذي عُهدنا إليه خشية أن يُصيبنا مكروه. وأخيراً وصلنا إلى مراكش مرهقين ومنهكين يوم 20 من نفس الشهر.

كان الإمبراطور قد خرج في صباح ذلك اليوم على رأس اثنتي عشر ألف مغربي في حرْكة (حملة عسكرية) لتأديب متمردي جبل الأطلس، وفي انتظار عودته، وُضعنا تحت حماية البعثة الإسبانية، حيث وجدْنا بحّاراً من طاقم سفينتِنا قد اقتيد إلى هناك.

في يوم 28 يونيه [1784م]، عاد الإمبراطور من حمْلته، فاستدعانا. كان يختبر جنوده حين وصلنا إلى موضع مقابلته، استقبلنا للتو، وبدا حساساً تُجاه مصائبنا. كنّا قد تمثّلناه كرجل قاسٍ ومطلق السلطة، ولا إنساني ولا يرحم، لدرجة أن التوسلات كانت تغضبه، ومع ذلك تجرّأنا على التوسل إليه كي يأذَن لنا بالعودة إلى أُسَرنا، ابتسم لشجاعتنا، وبالرغم من أن اهتمامه الأول كان هو أن ننتظر وصول باقي طاقم السفينة، فقد أبدى تأثره الكبير بالحالة السيئة التي قُدّمنا له عليها، فوعدنا بإرسالنا في أقرب وقت إلى فرنسا.

في اليوم الموالي جاءنا واحد من كبار الإمبراطورية، بأمر من الإمبراطور، ومعه مكافأة نقدية.

وأخيراً في الخامس من يوليوز [1784م] تمّ استدعاؤنا مجدداً، ووضَعنا الإمبراطور بين يدي باشا وأمره بالاعتناء بنا وأن يقودنا إلى قُنصلنا.

# إلى الرباط

انطلقْنا في نفْس اليوم من مدينة مراكش، مخفورين بعشرة جنود وفارس. التحقْنا عنْد خروجنا من المدينة بجيْش صغير من المغاربة، كان يتوجّب عليه أن يجوب كل بلاد البربر، وكان يرأسه ذلك الباشا الذي كلفه السلطان بنا، لم تُضايقنا الحرارة في تلك الطريق سوى على نحو قليل.

اعتنى الباشا بنا غاية العناية، إذ كنّا نسير دائماً وسط الجيش، مطوّقين بحرس خاص، وإذا ما تعبتْ بعضُ بغالنا كان يتمّ استبدالها للتو. كنّا نجد دائماً خيمتنا مهيأة قبل وصولنا، وكان يُوفّر لنا ما يكفي من المؤونة.

كانتْ أوّل مدينة وجدْناها في طريقنا هي أزمور، وهي واقعة على ربوة؛ كنّا محاطين بحرسنا كما شاهدنا عرضاً ممتعاً للعديد من الألعاب المغربية. سكان مدينة أزمور الذين كانوا ينتظرون، مجندين، الجيش الإمبراطوري قادُوه إلى غاية المكان حيث سيعسكر، وهناك تعاطوا للعب البارود وأظهروا مواهبهم في استعمال الأسلحة النارية. أثناء ذلك كان يجري في المدينة إعداد الطعام الكافي لكل أفراد الجيش، وتمّ حمْله إليهم ساعتين بعد ذلك على محامل.

بعْد أن أدّى حاكم المدينة التحية إلى الباشا، جاء لزيارتنا في خيمتنا، وهنّأنا بالحفاوة التي أُنعمنا بها لدى الإمبراطور وأرسَل لنا، بُعيد ذلك، بعض المرطبات.

مكثْنا يومين في ذلك المكان، وفي اليوم الثالث عبرْنا النهر[25] ومن هناك توجّهنا نحو الدار البيضاء.

تِلك المدينة التي كانت مشهورة جداً تحت الحكم السابق[26]، لا توجد بها سوى كومة من الأطلال، واصلْنا طريقَنا عبْر فضالة[27] والمنصورية[28]، وأخيراً وصلْنا إلى مدينة الرّباط بعْد 16 يوماً من السير.

كان عدد الجيش قد تضاعف، وكنّا نسير في الصبيحات بفعل الحرارة والصوم الكبير، بعْد أن نصَب الجنرال مخيّمه وعاقب بيديه العرب الذين خرقوا

---

[25] – نهر أم الربيع ينحدر من الأطلس المتوسط ويمر عبر تادلة والشاوية ودكالة ويصب في المحيط الأطلسي قرب مدينة ازمور. [المترجم].

[26] – يقصد حكم البرتغاليين وأصل تسميتها أتى من البرتغال والذي يعني الدار البيضاء. وقد بدأ تأثير البرتغال على المدينة من القرن الميلادي الخامس عشر فالمقر الأصلي كان هو أنفا، حيث هُوجم وتم احتلاله من قِبل البرتغال سنة 1468 بحجة أنها تحوي القراصنة الذين كانوا يستعملون الميناء كقاعدة للتحرش بالبواخر البرتغالية. وقد استمرت الدار البيضاء تحت حكم البرتغال لغاية سنة 1755 حيث وقع الزلزال الذي دمر المدينة وكذا لشبونة عاصمة البرتغال. [المترجم].

[27] – الاسم القديم لمدينة المحمدية أسسها السلطان محمد بن عبد الله سنة 1182 هـ. [المترجم].

[28] – ما تزال توجد أطلالها ما بين الرباط والدار البيضاء. [المترجم].

القواعد الصارمة للصوم الكبير، وقدّمَنا إلى حاكم المدينة، فوضعنا هذا الأخير على الفور بين يدي نائب قُنصلنا.

كان السيد مور الذي قد علم بانطلاقنا من مراكش، في انتظارنا من يوم الأحد، أقلقه كثيراً بُطء رحلتنا؛ خصوصاً وأنه كان يعلم أننا كنّا قد انطلقنا يوم 5 يوليوز [1784م]، وأن ثمانية أيام كانت كافية لاجتياز هذه الطريق: وكان يخشى أن تقع لنا بعض الحوادث المزعجة، ولقد كانت مخاوفه قائمة على أسُس، فإن سلكْنا الطريق المعتادة، كان ينبغي أن نمرّ من إقليم كان سكّانه قد انتفضوا للتو.

لا أمْتلك العبارات المناسبة للتعبير عن مدى فرحته العارمة حين علِم بوصولنا. فالطريقة التي تعامل معنا بها الإمبراطور جعلتْه يأمل في رؤية وصول باقي طاقم سفينتنا المنكوبة في أقرب وقت.

الاستقبال الذي خصّني به وما أظهره لي من لطف وما غمرني به من طيبة واعتناؤه بتوفير حاجاتنا أنا وباقي الفرنسيين يتجاوز كل ما أستطيع قوله. كان اهتمامه يشمل الكل؛ وقوة إحسانه كانت تتجاوز أيضا الصورة الإيجابية التي كنتُ قد كونتُها عنْه.

قضيْنا أربعة أيّام في منزله. لكنّ خوفه من تلقّي بعض الأوامر الجديدة من الإمبراطور جعلُه يُعجّل برحيلنا إلى طنجة. شمل بعنايته تهيئ كل الأمور اللازمة

التي يمكن أن نحتاجها في طريقنا، وفي يوم الأحد 25 من نفس الشهر ودّعناه والقلب ممتلئ عرفاناً بجميله وأفضاله.

# إلى طنجة

عبَرْنا نهر سلا[29]، وفي اليوم الموالي عُدْنا إلى البر، وعبرْنا غابة مليئة بالحيوانات المفترسة، بالبُبُور والأسود، رأيناها على شكل قُطعان، وكانت كثيرة العدد أساساً على ضفة نهر[30] يصب بالبحر بالقرب من المعمورة.[31] اجتزْناه مع ذلك أمامها بأمان، رأيناها تنسحب بخطوات بطيئة كلّما اقتربْنا. لم أكُن في اطمئنان لولا الأمان الرفيع الذي وفّره لنا العرب، إذ أنّ حضور هذه الحيوانات المُفترسة لم يكن يقلق أكثر كالحيوانات الأليفة جداً.

استغرقتْ رحْلتُنا سبعة أيام؛ نفقتْ خلالها ثلاث بغْلات بفعل اشتعال الحرارة، جعلتْنا الرغبة في مُعانقة وطنِنا مُجدّداً والخوف من أن يتم إيقافُنا انصياعاً

---

[29]– نهر أبي رقرارق ينحدر من الأطلس المتوسط بناحية تادلة ويصب بين الرباط وسلا على المحيط الأطلسي.[المترجم].

[30]– نهر سبُو ينحدر من الأطلس المتوسط ويصب في المحيط الأطلسي قرب المهدية بعد مروره بالقنيطرة. [المترجم].

[31]– تقع على مصب واد سبو وهي المهدية حاليا.[المترجم].

لبعْض الأوامر الملكية الجديدة، نُسْرِع فِي سيْرنا؛ فوصلْنا إلى طنْجة يوم 31 يوليوز [1784م].

# الحجر الصحي

كان ينتظرُنا السّيد **سالمون** (Salmon) قُنْصل إسبانيا المُقيم بهذه المدينة [طنجة]، كان قدْ حجز لنا قارَباً كان متوجّها نحْو قادس، ركبْناه يوْم الأحد فاتِح غُشت [1784م]، في السّاعة السّابعة مساء، وفي اليوم المُوالي في الساعة الثّامنة صباحاً حللْنا بمرْفأ قادس.

جاءت اللجنة الطبية [المحلية] على الفور وتجادلت معنا ووضْعتنا في الحجر الصحي، وأرسلتنا إلى المحجر الصحي لازاريت (Lazaret)[32] قُرْب جزيرة ليون (Leon)[33]. ظللْنا ثلاثة أيام في قاربنا دون أن نتمكّن من وضْع أرجلْنا على الأرض؛ لم نكُن نتوفّر على أماكن مُخصّصة للنوم؛ كانتْ تنبعِث من بعْض الدّجاج، كان يحْمِله القارب، رائحة كريهة، وكنّا نَخْشى أن يقَع واحد منّا مريضاً.

وأخيراً في يوم 5 غُشت في العاشرة ليلاً، تمّ السّماح لنا بالنّزول، فتركْنا على الفور قاربْنا وارتَحْنا داخل هُري.

---

[32]- هو المكان حيث كان يخضعون فيه المسافرون إلى الحجر الصحي حتى يتأكدوا من أنهم سليمون من بعض الأوبئة كالطاعون وغيره. [المترجم].

[33]- هي واحدة من الجزر المكونة لخليج قادس باسبانيا. [المترجم].

ضايقني كثيراً جُرْح قديم كانت حركة سير البغال قد أحْيتْه بحدّة. لم أكُن قادراً، داخل ذلك المكان المُسمّى خطأ بيت الصحة، على الحصول على الإسعافات اللازمة، كنتُ شاحباً ومشوّه الوجه: برؤية الركاب الآخرين لحالَتي بدوا أنّهم يلومُونني على [تمديد] إقامَتهم في ذلك المكان.

في يوم 11 غشت في العاشرة صباحاً، رأيت قارب الصحة، فأبديْت أحسن مظهر ممكن، حتى رأى الأطباء المنخدعون بمَرَحِي الظّاهر، أنّني أحْسن مع ذلك ومنَحُونا حرّيتنا.

كان الكل تحفزهم رغبة، بحارتنا، وبحارة القارب، في استعجال تحميله؛ نصف ساعة بعد ذلك توجّهنا نحو قادس، وفي نفس مساء ذلك اليوم قُدّمنا فيه إلى السيد بواريل (Poirel) نائب قنصل فرنسا بالمدينة.

متاعب المشاغل العديدة التي كانت تشغله حينها، لم تمْنعْه من العمل على التخفيف عنّا. وبما أنّه كان مُقتنِعاً بأن بعض المنكوبين العائدين من الاسْتعباد لهُم الحق أكثر منْ غيرهم في الاستفادة من نِعم المَلك. فقد وزّعها علينا بسَخاء.

أعجزُ عن التعبير عن الاهتمام الذي أبداه تُجاه مِحنتي الماضية ووضعيتي الحالية. بتأثّره المفعم بالرحمة. أبدى همّة ملحّة جداً لوضع حدّ لآلامي، أرسل لي جرّاحَه الخاص، وبذل كل مجهوداته كي أستعيد صحتي، بعْد ثمانية أشهر متواصلة من الأتعاب والمحن، عملتْ على إنهاكِها كثيراً.

وباختصار، نفس المُساعدات التي تلقّيناها من السيد مور نائب قنصل فرنسا في بلاد البربر، تلقيّناها بقادس من يدي السيد بواريل.

قبْل مغادرة قادس التي قضيتُ بها 38 يوماً كي استعيد قواي، تمّ تخويفي مرة أخرى بأخبار سيئة، لكن من حسن الحظ لم تقلقني كثيراً. اضطرب نظري وأظلم: توقفتُ عن إبصار ما يحيط بي من أشياء. صرْت مرّة أخرى أعمى، مثْلما حدث لي مدة 35 ساعة بالصحراء، حينما تمّ عقابي على حادث لم يكن بمستطاعي توقّعه أو منْعه، بفقدان ثلاث عنزات افترسها ببْر، كنتُ ضحية له، دون هروب مُندفع، جعلني سيدي الفظ والمتوحش ضحية لسُعاره، وتركَني بلا حراك، مربوطاً إلى عمود، حيث كنت مُدمى ومُمزّقاً، ومغطىّ بالجروح، بقيتُ مرمياً حتى مطلع الفجر، معرّضاً لندى خارق، كان في تلك المنطقة الباردة ليلاً والحارة نهاراً.

لكن فقدان البصر الجديد الذي عانيتُ منه بقادس، لم يدم سوى خمس ساعات: فالحجاب السميك الذي سقط على عينيّ المنهكتين زال تدريجياً، رأيت النور مجدداً، بعد أن خفت، للمرة الثانية، من فقدانه إلى نهاية حياتي.

# العودة إلى الوطن

كنتُ نافِد الصّبر بالعودة إلى فرنسا، في انتظار استعادتي لصحتي الواهنة تماماً، في يوم 17 شتنبر ركبْتُ سفينة يقودُها القبطان **بوتريل** (Poutrel). وبعْد إبحار مُرعِب وصلْنا إلى مارسيليا يوم 5 أكتوبر [1784م]. فتمَّ إخضاعنا لاثنتي عشر يوماً من الحجر الصحي؛ ولم نتمكّن من النّزول إلى البر إلاّ في يوم 16 من نفْس الشهر.

أي مرح وأي انفعال لطيف، استولى عليّ أثناء دُخولي إلى الأراضي الفرنسية. اتّخذ قلبي حياة جديدة. لقد انشرح، كان يكفي بالكاد لاستقبال الانطباعات الرائعة والمتنوّعة التي جاءت لإنعاشه، سيطر الفرح على كلّ كياني. صحيح، قلتُ لنفسي، إن نهاية كل آلامي ليست غير مؤكدة. السلام، الهدوء، السعادة، ولدوا بالنسبة لك. توقّف الحظ عن مضايقة حياتك: سيقودك إلى قلب وطنك، بمُستطاعك أن تكرّس نفسك في خدمة أحسن الملوك. ستقترب من أسرة عزيزة، كُنتَ تعتقِد أنّك لن تفارقها أبداً؛ سترى أقارباً بكوا لفقدانك.

في باريس كانوا ينتظرونني، كان يتوجّب عليّ معانقتهم بالأحضان، التي وصلت إليها يوم 11 نونبر [1784م]، كان ذلك اليوم هنيئاً بالنسبة لي! وكان

تذكّره عزيزاً على ذاكرتي! أي رأفة! اخترقتني حين رأيتهم مجتمعين حولي، كل من تنهّد لغيابي! بأي اهتياج عاطفي أندفع تحت قدمي أكثر الأمهات جدارة بالاحترام. أي لذة سأتذوّقها حينما ستحضنني، حين أشعر بسيلان الدموع على وجهي جعلها الفرح تنهمر، وتمتزج بدموعي. الصّداقة، الحنان البُنوي، حشْد من المشاعر المتنوّعة كانت تتلاحق، وكانت تتسارع، داخل روحي، كانتْ تُطوّعها وتمتصّها بأكملِها. لمْ يسْبقْ لِي أبداً أن عِشْتُ لحظة جميلة جداً في حياتي مثْل تلك، لقد عوضتني عن كل المآسي التي سبقتها. استمتعتُ كثيراً في تلك اللحظة القصيرة جداً، والسريعة جداً، التي لم أعاني منها طوال مدة استعبادي.

في يوم 21 نونبر 1784م ذهبتُ إلى فرساي، وهناك على الفور، كان لي الشرف بالامتثال أمام السيد المارشال **ديكاتري** (Decastries) وزير الملاحة، لأقدّم له مذكراتي، لقد كان بابه مفتوحاً دائما أمام سيئي الحظ. تأثير حكمته وأنواره على قرارات الأمير، لم تكُن متكلّفة بالنّسبة له، لأنّها تمنحُهُ القوة لممارسة إحسانه بشكل نافع جداً، استقبَلني بطيبة، جعلته حساسيته منتبهاً إلى محكي محِني. لم يزدر بحمل شكاواي إلى العرش، وبأن يكون حاميَّ لدى الملك الذي أغْرقني في نِعمه، منحتْ لي هبَة ووعوداً لا يُمكن أنْ تكون باطلة، جَعلتْني آمل في مُمارسة حماستي ومواهبي الضّعيفة قريباً في مكان لا تعرّضني فيه المهام الموكلة إليّ إلى مصائب جديدة لا يستطيع مزاجي المُنهك على تحمّلها.

# فهرس الأعلام


أ

أوديبير 62

ب

باردون 23

باعلي 61

بريسون 3

بنطاهر 58

بواريل 73

بوتريل 75

بوطوكي 61

بيرغ، ماركوس 3

## ح

حجي، محمد 5

## د

دالوز، كاميل 43

دامبيير 7

ديبار 58–59

ديبوي 62

ديشان 13 –14–16

ديكاتري 76

## ر

روشي 56

## س

سالمون 72

الساوري، بوشعيب 4

سونيبي 47

## ش

شونيي 57

## ط

الطالب، حسن 43

## ع

مولاي عبد الرحمن 63

مولاي عبد السلام 62

عبد الله بن اسماعيل 60

## ف

فوليي 3– 47

## ك

كابان 58 –59

كارسان 7

## ل

لويس السادس عشر 7

## م

محمد 55

سيدي محمد بن عبد الله 20–60–67

محمد بن موسى 63

مور 56–57–59– 68

مونتيل 7

مويط 5

ميتلن ماريا، 3

## هـ

هارون 55

## ي

اليزيد بن محمد 60

# أسماء الأماكن


## أ

أرجوان 8

أزمور 66–67

إسبانيا 72

الأطلس 65–70

إفريقيا 57

الإمبراطورية المغربية 56

أم الربيع 67

أمريكا 7

أنتو 8

أنفا 67

أويسان 9

## ب

باريس 7–75

البحر المتوسط 8

البرانس 8

البرتغال 67

بريطان 9

بلاد البربر 66–74

بوردو 7

بورقراق 70

## ت

تادلة 67–70

تارودانت 62–63

تولوز 8

## ج

الجارون 8

الجروند 8

جزيرة ليون 72

## د

الدار البيضاء 4–67

دكالة 67

الدوردون 8

## ر

الرباط 43–61–66–67–70

رويان 8

الريصاني 5

## س

ساحة بوردو 20

سبو 70

سلا 56–70

السنغال 7

سيدي إفني 10

**ش**

الشاوية 67

**ص**

الصويرة 10

**ط**

طرفاية 10

طنجة 68–71

**ف**

فرساي 76

فرنسا 7–8–9–56–57–61–65–73–74

فضالة 67

**ق**

قادس 72–73–74

القنيطرة 70

ك

كاب نون 10

كلميم 55-58

كليمي 55-58

ل

لازاريت 72

لشبونة 67

م

مارسيليا 62-75

المحمدية 67

المحيط الأطلسي 8-9-67-70

مراكش 64-65-66-68

المسلمين 35-36

المشوارين 35-36

المعمورة 70

المغرب 3-20-56-57-61

مكناس 60

المنصورية 67

المهدية 70

موكادور 10- 38-58-59-60-64

ميدي 8

**ن**

نانت 62

**هـ**

الهند الغربية 7

**و**

واد نون 4-63

# الفهرس


مقدمة المترجم........................ 3

تنبيه للقارئ.......................... 5

الانطلاق............................ 7

الغرق................................ 12

الأسْر................................ 22

بداية الاستعباد...................... 29

الاختطاف........................... 34

قتل القبطان.......................... 38

الرعي............................... 42

العمى............................... 46

مالك جديد.......................... 49

الافتداء............................. 55

إلى موكادور......................... 59

إلى مراكش......................... 64

إلى الرباط........................................ 66
إلى طنجة........................................ 70
الحجر الصحي........................................ 72
العودة إلى الوطن........................................ 75
فهرس الأعلام ........................................ 77
أسماء الأماكن ........................................ 81